# حتى منتصف الليل

الطبعة الأولى 2022/2021

- الكتاب: حتى منتصف الليل
- المؤلف:شرقاوي حافظ
- تصميم الغلاف: شيماء أبو طالب
- تدقيق لغوي:محمد محي الدين طلبة
- تنسيق داخلي: حنين علي
- رقم الايداع: 29423
- دولي 978-977-94-0583-4

---

المدير العام: عزيز عثمان

لمراسلة الدار: daralmuntadaa@gmail.com

واتس آب: 01005186476

صفحة الدار على موقع فيس بوك:

978-977-94-0583-4



المنتدى للنشر والتوزيع

# حتى منتصف الليل

## شرقاوي حافظ

(قصص ونصوص من الحياة)

# إهداء

إلى....

# الحقيقة

أبحرتُ، وأبحرتُ، وأبحرت

فبعدتُ، وبعدت، وبعدت.

كلما أبحرت، تباعد الخطان الأزرق، والأزرق.

من بين هدير البحر ورعد السماء

اخترقني هذا النداء.

عندما يلتقي الخطان ستعرف الحقيقة!

**الحيز**

مالي أراك منزويًا هناك يا أيها (المسيح اليهودي)، وماذا يفعل (محمد رسول الله والذين معه)؟ لست أدري، فها هو نيتشه يرفع يسراه إلى أقصى الصوت، (هكذا تكلم زرادشت) ليعلن أنه قد مات الإله، أي إله هذا الذي مات؟ ومن الذي أماته؟ هل أمات نفسه بنفسه كما خلق نفسه بنفسه؟ وما مصير (جمهورية أفلاطون) بعد ذلك؟ ها هما (الشيخان) يأتيان وهما يعرجان بقدر إمكانتهما إذ بهرتهما (عبقرية محمد). يا لـ(عبث الأقدار) ويا لهذا الحيز الذي يقبع في مركزه (الإنسان)، إنهم منذ (فجر الضمير) يحتشدون رغم تناقضهم وتشاحنهم المستمر، وكأنهم جميعًا شعرة ضئيلة للغاية في هذا البحر الخِضَمِّ من الشعر الكثيف الذي أغرق جسد الأرض كلها، يا له من جسد يبتلع ولا يشبع، إني أسمع تأوهًا آتيًا من بعيد: «لقد تهشمت ضلوعي من هذا الحشر»، وصوتًا أكاد أسمعه يصرخ: «ماذا تفعل (الرياضيات في حياتنا)؟ في حياتكم أنتم، أما حياتهم فقد فعلت الكثير، أخرجوني من هذا الحيز الضيق المظلم الملعون، إنني أنرت حياتكم، فكيف تلقون بي في هذه الظلمة؟»، من أنت، أأنت نيوتن؟ أأنت من العظماء المائة؟ «هذا خطأ، لم يكن هكذا الأصل، أخرجوني»، وأخرجه صوت من خارج الحيز:

– «ربطتها، ووزنتها يا باشمهندس، 100 كيلو، يعني 200 جنيه كما اتفقنا»

– «200 جنيه؟! أتذكر أنني حصلت على واحد منهم فقط بـ 65 جنيه، أيام ما كان الجنيه جنيه، يعني اضرب الجنيه في عشرة! ياه، بس مش خسارة أهو حد هيستفيد بيهم»

– «يا بشمهندس دول نصهم هيترمي في الزبالة»

– «يعني إيه! مش هتبيعهم عشان الناس تستفيد بيهم؟»

– «ههههها أبيع إيه، هو فيه حد دلوقتي بيهتم بالحاجات دي؟ داحنا هنفرمهم بالمفرمة!»

– «مفرمة؟ لا، أنا قصدي تبيعهم عشان الناس تستفيد، كده ماينفعش»

– «يعني إيه؟ بعد التعب ده كله هترجع في كلامك؟ اديني أتعابي لو هترجع في كلامك، آه، وأفضيهم، وآخد شيكارتي، وخليك أنت مع كتبك»

# المرآة

وقف أمام المرآة يتأمل ملامحه كعادته كل صباح، ولا يدري لماذا هذه المرة رأى كل شيء مختلفًا؛ فهذا الرأس الذي شبهوه بالقلقاسة لم يعد كذلك، وإن لم يكن لا يعرف ما العلاقة بين الرأس والقلقاس. إنه يري الرأس أقرب إلى البطيخة، غير أنه ليس بالرجل الأخضر. غمغم متجهمًا فجأة، ثم صمت للحظات وتحول التجهم إلى سلسلة من القهقات الطفولية، وهو يحدق في هذا الشارب الكثيف الذي أخذه إلى أيام الطفولة، وبالتحديد إلى أمه التي ماتت في حادث أليم، وبموتها مات بداخله كل شيء يمت للإنسانية بصلة، فصورة أمه العالقة في مخيلته وهي تمسك بالمكنسة الطويلة، التي تتراص فيها خوصات المقشة، كما تصطف شعرات هذا الشارب الذي كاد يسد أنفه، الذي فقد كثيرًا من حاسته، تتحول نظراته ومعها تتحول ضحكاته الهستيرية إلى غمغماتٍ غاضبةٍ، لأنه لم يجد من نظرية النسبة الجمالية التي قال بها أجداده المصريون شيئًا في جسده هذا؛ فالجزء العلوي من جسمه يضرب بهذه النسبة عرض الحائط. كاد زجاج المرآة أن يحترق من ذلك الشرر المنبعث من عينيه، وهو يفكر ولا يرى صدى لأفكاره، فيتكلم ولا يرى صورة مضخمة لكلماته، أليست هذه المرآة محدبة؟

فلماذا لا تصل أفكاري لهؤلاء الأقزام، لماذا لا تدوي كلماتي كالرعد في آذانهم؟ لماذا ولماذا، وبدأ يشعر برعشة قوية في ذراعيه وهو يرى في المرآة صورة بطل للملاكمة العنيفة، وعلا صوته بقهقات غريبة وهو يرى المرآة تتساقط مهشمة من أثر الضربة القوية التي وجهها إليها بكلتا يديه.

# المنديل

هأنذا المنديل الحرير الأبيض؛ بل أميل إلى الاصفرار، لون الحرير الطبيعي. لماذا وضعوا لي بروازًا كإطار الصور؟ هل للزينة، أم أنهم يرونني من شدة جمالي كصورة رائعة ولا بد من وضعها في إطار؟ أخاف أن تكون نار الغيرة جعلتهم يتهيئون أنني في سجن وها هم يحيطونني بهذا السور؟ ولكن أيًا كان السبب فمنظري جميل، لأنني أبدو قويًا في هيئة المربع بإطار ذهبي. إنها تمتد إليَّ؛ يد بضة مرصعة ذراعها بالأساور الذهبية (أي الغوايش)، امتدت لكي تخرجني من هذا السجن الكرتوني، إنها تريد أن تشتريني، أسمعها تقول للبائع:

– «هو ابني كتير عليه منديل حرير، دا أنا ملبساه البدل زي ابن الباشا، هو أقل منه؟»

فعلًا دفعت الحساب دون أن تساوم في السعر، وأخذتني بعد أن قلبتني في يديها لتطمئن على صحتي، ومن يدها إلى يدٍ نحيلةٍ صغيرة، حيث ابتسم صاحبها:

– «شكرًا يا ماما، المنديل حلو جدًّا، وملمسه ناعم»

ولكن الحلو أحيانًا لا يكتمل؛ فكل شيء جميل له ضحايا، وأنا ضحية العلم، إذ كنت أرقد على مكتب صاحبي وهو يذاكر، حتى طال به السهر وأخذ منه التعب، فوضع جواري قلمه الحبر العزيز، وكأنما ريشته أرادت أن تداعب طرفي بطرفها فبللته بريقها، وولدت بقعة من الحبر على إطاري الذهبي. حاول أن يمحيها بكل الطرق، فلم يفلح إلا بتحويلها من بقعة فاقع لونها إلى بقعة باهتة اللون. وتمر الأيام ولا أدري كيف وقعتُ في يد هذا الشاب السمج الذي لم يكرم ضيافتي، لقد سرقني من صاحبي ولكن الجريمة دائمًا لا تكتمل؛ فبعد أن خبأني أيامًا بل شهورًا، وبعد أن يئس صاحبي الرفيق بي من

العثور عليّ، نسي السمج أنه سارقٌ فأخرجني من جيبه أمام صاحبي لكي يفرغ فيَّ قذارته، وما إن رآني صاحبي حتى هب صائحًا، وقد التمعت الفرحة في عيونه:

– «منديلي»

فاستنكر الشاب السمج قوله وقال له:

– «مفيش غيرك معاه منديل حرير؟»

– «ولكن البقعة!»

– «هو انت بس اللي معاه قلم حبر وينشع على منديل؟»

وهكذا لم يستطع صاحبي استردادي، وحكم عليَّ بالسجن مع هذا السمج. وفي ليلةٍ لست أدري متى بالتحديد ولكن أتذكر أنها ليلة شتوية قليلًا، أو معتدلة، سمعت هتافًا وأصواتًا غريبة، ثم دوت أصوات طائرات ومدافع، فتلصصت من جيب صاحبي السمج ولكن هذه المرة رأيته بشكل مختلف، رأيت على وجهه الجدية والإصرار، وهو يضغط على أزرار آلية في مدفع ضخم، ويجري هنا وهناك، ويصيب من يصيب وهو يهتف بحرقة:

– «دي بلدنا يا ولاد الكلب، نموت كلنا ولا تاخدوا شبر من ترابنا»

لا أكذب عليك، تحولت كل كراهيتي له إلى ندم فلكم تعاطفت معه بل وتمنيت أن أخرج وأشاركه المعركة، وفجأة وجدتني أشهق شهقة حزينة وبللت نفسي بدموع ساخنة؛ إذ رأيت دانة تأتي كالقدر لتفصل رأس صاحبي عن جسده، غرقت في دمه، ولكني هللت فرحًا في داخلي، إنها النهاية التي تمنيتها في نفسي كثيرًا، لذلك أصررت أن أدفن معه لكي أنال مثله الشهادة، ومرت بي الأيام وها أنا رفات من هذا البطل أنتظر.

# الضرس

نهض مفزوعًا من النوم، "اللهم اجعله خيرًا"، تتلاحق أنفاسه.. "كابوس أم رؤيا؟ سأذهب إلى الشيخ (عامر) ليفسر لي هذا الحلم المزعج: يا له من وجه بشع مد يده –أقصد مخالبه–، فتح فمي بالقوة ونزع أحد ضروسي وقذف به في هوة سحيقة. نعم كنا ونحن صغار نقذف بالأسنان المخلوعة في عين الشمس ونبتهل.. خدي سنة الحمار وهاتي سنة الغزال.. أو خدي سنة الجاموسة وهاتي سنة العروسة، ثم تغنيناها: "يا شمس يا شموسة خدي سنة النتوسة، واديلها سنة جديدة تاكل بيها البسبوسة". في كل الحالات كنا نقذف بها في عين الشمس، وليس في هوة سحيقة لها فحيح وصهد لافح لا أستطيع أن أرى ما في داخلها. الشمس أيضًا ساخنة وملتهبة، فما الفرق؟ الفرق الشمس فوق، أما الهوة تحت.. سنرى الشيخ عامر".

تشهد الشيخ عامر وهو يستمع إلى الحلم وقال له:

– «يا بني كلنا سنموت، وهذا الكون كله انكتب عليه الفناء، سبحان من له الدوام...»

– «ماذا يا مولانا؟ أقلقتني»

– «الحلم يقول –والله أعلم– إن أحد أفراد عائلتك سينتقل إلى رحمة الله، والهوة السحيقة، أو الحفرة العميقة، العياذ بالله.. الله يا بني رحمته واسعة، لكنها التي... ربنا يكفينا حرها، وعذابها»

جرجر قدميه وهو يبتعد عن الشيخ، ويغمغم.. من يا ترى، الوالد أم الوالدة؟ فكلاهما مريض وفي حالة حرجة، الموت علينا حق، أما الحفرة؟ أبي وأمي طوال حياتهما يفعلان الخير، لقد أدَّيا فريضة الحج أكثر من مرة، غير مرات العمرة! تبرعاتهما في السر والعلانية يعرفها القاصي والداني.. ما من مشكلة أو كرب إلا وكان على يديهما الفرج. لقد ربيانا على التقوى والصلاح، حتى

السيجارة لم يكن لها موضع في بيتنا، أبي يؤكد أنه لم يكشف وجهًا إلا وجه أمي، وأمي تؤكد أنها لم تخرج من بيت أبيها إلا إلى بيت أبي، إذًا ما سر هذه الهوة السحيقة؟ هل هي إشارة للعذاب؟ العذاب أيضًا يمكن أن يكون في الزمهرير! لا بد أن أفتش بين أفراد العائلة، ربما هناك من يدعي التقوى نفاقًا ورياءً، ولكن كيف ونحن السلالة الشريفة؟ نحن من قيل في حقهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، نعم، من أولياء الله الصالحين، نحن ثمار الشجرة المباركة، لم نعرف عن شخص في العائلة ارتكب خطيئةً ما.

"كذب المنجمون ولو صدقوا"، ولكن كيف صدقوا؟ أنا أميل إلى أنها الفاء وليست القاف، "ولو صدفوا" رغم أن بعضهم يستنكر كلمة صدفة! لم أتعب نفسي، لقد قُذف جدنا الأعلى في النار وكانت بردًا وسلامًا، فهل هذا الذي سيموت سيمر عليها؛ فكلنا واردوها.. لا ليس هذا هو المقصود من الحلم. يا له من خزي وعار أن يكون أحد أفراد العائلة من هذه الفئة؛ فنحن من أصل ثابت، لم يتزوج أحد من عائلتنا –ذكر أو أنثى– من خارج الأصل الثابت، وإن كان جدنا الكريم تزوج من خارج العائلة، بل من خارج البلد كلها، وهي الوحيدة التي أنجبت له سيدنا بعد انقطاع طويل!

"مدد يا حبيبي".. بدأ يفكر ويتعمق في تفكيره في إخوته وأخواته، كلهم ولله الحمد يتمتعون بالسيرة الطيبة، ماذا عن نفسه؟ منذ نعومة أظافره وهو يلتزم العبادات كلها، حتى الحج.

مر شهر وهو على هذه الحالة، بين قلق وتساؤلات وحيرة تنهش فيه ليل نهار، بدأ يساوره الشك في كل من حوله، حتى زوجته بنت الحسب والنسب والشجرة المباركة، ولم يترك أبناءه من هذا الشك القاتل. مر شهران؛ بل ثلاثة أشهر، وكل يوم تزداد حالته سوءًا، ولم يمت أحد!

مر عام وتدهورت حالته، ومنَّ الله على والديه بالشفاء والعافية.

مر عامان وثلاثة وأربعة أعوام، ولم يمت أحد من العائلة، غير أنه التصق هو بفراش الموت من شدة التفكير، والوسوسة، تغيرت حالته، لم يعد يواظب على العمل، ولا حتى العبادات، أهمل نفسه وأصبحت ملابسه تثير الشفقة، وطالت لحيته، وبدأ من حوله ينفرون منه، ويتقززون من تصرفاته المريبة.

أوشكت زوجته تشكو من عدم معاشرته لها، لقد امتنع عنها خوفًا من أن ينجب هذا المشئوم! والحقيقة أنه لم يعد قادرًا على أداء أي واجب حتى واجب قرة عينه الصلاة، بدأ يهملها تعبًا وإرهاقًا لا تكاسلًا.

أصبح أولاده يستاءون من طريقته في الأكل والشرب والنوم، وبات الناس يتحدثون عنه حديث استغراب وشفقة. اقترحت العائلة أن ترسله إلى مستشفى الأمراض النفسية؛ بل ومنهم من اقترح الأمراض العقلية! لقد أصبح عبئًا لا يطاق.

إنه يؤمن إيمانًا كاملًا بمقولة: "علاج الضرس خلعه"، خلع أسنانه واحدةً تلو الأخرى، وكذلك ضروسه. قيل إن ضروس العقل لم تكن موجودة. صار يستخدم طقم أسنان صناعية، استاء من خلع التركيبة كل يوم، فخلعها ذات غروب وأمسك بها وقذف بها في عين الشمس وهو يضحك ضحكًا هستيريًا..

"يا شمس يا أم النهار، خدى سنة الحمار!!".

**النوبي**

(النوبي) هو اسم لا لقب. شاب ضخم البنية، يداه خشنتان، قدماه أكثر خشونة لأنه لا يلبس حذاءً مطلقًا، له شارب متوسط، تميل بشرته إلى اللون القمحي، عيناه بارزتان قليلًا، يرتدي جلبابًا أبيض مخططًا بالأزرق، فوق رأسه طاقية من اللباد. يقوم بأي مهمة تطلب منه، وبسرعة فائقة، ليس له عمل محدد، فتارة تراه يحمل صندوقًا لمسح الأحذية، وأحيانًا تراه يحمل بين يديه صينية ويصيح بأعلى صوته: «عندك واحد شاي مظبوط لسيد المعلمين»، وأحيانًا تراه يعمل في البناء، يحمل على كتفيه الطوب مرة، ومرة (قروانة المونة) مونة الأسمنت بالرمل والزلط. وفي كثيرٍ من الأحيان تجده خادمًا مطيعًا بلا مقابل، معروف عنه دائمًا أنه يذهب إلى الجامع الكبير، وبالتحديد إلى البئر المخصص للجامع؛ فلم تكن المياه قد دخلت إلى المسجد بعد، ولا الكهرباء، فكان النوبي يرفع المياه بساعديه المفتولين عن طريق الحبل، في إناءٍ كبيرٍ يسمى (القادوس) مملوء بالماء الذي يصبه في مجرى اسمنتي، يغذي خزانًا يوزع المياه في المواسير لدورة المياه والميضة، بعد أن ينتهي من مهمته التي يؤديها غالبًا بعد صلاة العشاء أو قبل صلاة الفجر، أو بعد صلاة العصر. ومهما تغيرت نوعية العمل الذي يقوم به، لم تنقطع عادة أن يأتي بالماء من البئر.

النوبي دائمًا يبتسم، ويرضى بأقل القليل، إذا أعطيته مالًا مقابل عمل قام به أخذه بعد إلحاح، وطاد الخجل يصب كل الدماء في وجهه، وظل يدعو ويشكر من يعطيه وكأنما أعطاه صدقة، ورغم ذلك لم أره مرة في صفوف المصلين. يقوم بتغذية المياه وينصرف قبل الصلاة، حتى في شهر رمضان أراه يأتي بالإفطار للمصلين في المسجد، حيث يدور على البيوت التي تتبرع

بالفطور، وأيضًا بالسحور، ويحمل الصواني ويذهب بها قبل المغرب، وقبل السحور، وإن لم أشعر بأنه صام يومًا.

عندما ماتت جدتي رأيته يحمل النعش مع الحاملين، ورأيته يقوم بحفر القبر بفأس، بمفرده، وفي العزاء يقوم بتوزيع المشروبات، بل ويعد الميكروفون للقارئ، وكان الميكروفون يعمل ببطارية.

حينما تزوج عمي وجدته يحمل (الدكك) لجلوس المعازيم، ويرش الأرض الفضاء بالماء، وبعدها يركب الحصان ويرقص به على المزمار البلدي، ويرقص بالعصا، فيما يسمى برقصة العصاري في ليلة الحناء، ثم بعد انتهاء الرقص يقوم بنصب ما يسمى بالمسرح، وهو من أعمدة خشبية، ويعتلي المسرح الذي اتخذت عليه الفرقة الموسيقة، أو الغوازي أماكنها، ويقوم بالإعلان عن النقطة، فهناك أستاذ من بيت العريس يمسك دفترًا يسجل فيه اسم من يدفع النقطة وقيمة المبلغ، وأتذكر أن قيمة النقطة لو كانت أكثر مما جامله بها العريس قبل ذلك، فمعناها استمرار المجاملات بينهما، وإذا كانت تساوي نفس القيم، فمعناه توقف المجاملات بينهما، وراح ينادي بأعلى صوته: «وفلان الفلاني ينقط بالفضة وخلافة خير»، هكذا سمعتها ولا أعرف معناها، ثم فجأة تجده يوزع الشربات.

وفي ليلة الزفاف يقوم بنصب السرادق، وإعداد الميكروفون للشيخ، فالعادة أن يحتفل بالزواج في ليلة الزفاف بقراءة القرآن.

في إحدى الصباحات، أثناء ذهابي إلى المدرسة، جاءني جريًا وأخذ مني الشنطة لكي يحملها لي حتى باب المدرسة، أنظر إليه مبتسمًا وهو يقول:

– «العلام حلو، كان نفسي أروح المدرسة وأتعلم القراية والكتابة»

سألته مرة:

– «لماذا لا تلبس جزمة في رجلك؟ الجو حر، والشمس حامية، والأرض بتشع نار»

فقال لي:

– «لهيب الأرض أهون عليَّ من لهيب الجزمة، بأحس أني مخنوق لو لبست جزمة»

كنت أراه كثيرًا يمسك بلجام حمارِ كبيرِ أية عائلة، أو حتى صغيرها، ويقوده بخطى سريعة، وهو يجري كالحصان بجوار الحمار. أحيانًا أراه يمسك بالشمسية ليحمي الكبير من وطيس الحر.

لا يخلو أي موقف يحتاج رجولة وشهامة من النوبي، وكأنما تجسدت فيه العفوية والطيبة الفطرية. كان أحد اثنين، ممن تثق فيهما ستات البيوت، الآخر سأحكي لك عنه في فرصة أخرى، والحقيقة كان عفيفًا حييًا، لا يرفع عينه في أية امرأة تطلب منه أية خدمة.

سافرت إلى الجامعة فكنت أسأل عنه في خطاباتي، فيقال لي إنه زي (البمب)، ولم أعرف معنى كلمة بمب إلا فيما بعد، فكنت أقول: «إزاي زي البمب؟ يعني ممكن يفرقع لو اقترب من النار أو ظل كثيرًا في الشمس، أو حتى لو أحد خبطه بحاجة صلبة»، ولما كنت ممن يحاولون معرفة كل شيء عرفت فيما بعد أن كلمة (بمب) ليست تلك الكرات البارودية الصغيرة التي تباع في الأعياد ضمن الألعاب النارية، إنها كلمة أجنبية أيام الاحتلال وتعني العظمة، فكان الخواجة يخرج من البارات أو بيوت المتعة ويقول "بمب"، أي أن صحته عال العال.

في إحدى الرسائل قيل لي إن النوبي اختفى! أين اختفى النوبي؟ لا أحد يعرف، بحثوا عنه في كل مكان يخطر على البال فلم يعثروا عليه. إذا رأوا

شيئًا طافيًا على سطح الترعة أو النيل هرعوا إليه، ويكتشفون أنه ليس للنوبي. في ذات يوم وجدوا شيئًا ما طافيًا في عمق البئر، فأسرعوا إليه، وهم يتساءلون: كيف أتى إلى البئر وهو غائب من مدة؟ ولو أنه هو كيف لم نكتشف الجثة؟ فالبئر نأخذ منها الماء يوميًا!

مئذنة الجامع؟ ربما هي المكان الوحيد الذي لم يصعد فيها النوبي؛ فهو لا يجيد الأذان.

قال أحد الصبية إنه رآه منذ يومين يخرج من الجامع ليلًا متجهًا نحو طريق المقابر!

**ورقة**

أنا ورقة.. مرسوم على صفحتي عملة لها وجهان.

وجه مضيء جدًّا، ووجه مظلم جدًّا.

مررت بين طرفي مقص...

في ذات الخط الفاصل بين الوجهين.

حلق أحدهما في الشمال،

وغاص الآخر في الجنوب.

والآن لا قيمة لي دون الوجهين..

فمن يأتي بالمقص ليعيد لي وجهي مرة أخرى؟

# نفق الصمت

فتحت في الليل نفقًا من الصمت مرصعًا بأنّات الحروف الساكنة.

جسدٌ يتعرى ببشرته اللامعة، والنبرات الداكنة.

دخلت من أحد الشرايين الممتدة إلى حيث خرجت من أحد الأوردة نازفة الضوء.

– «ماذا تريدين؟»

– «لا أدري.. إلا أنه مرت خمس آلاف منذ دخولي الأول»

– «وأنا أيضًا مرت خمس آلاف منذ خروجى الأول.. أي ما بيني وبينك عشرة آلاف من السنوات الضوئية! لكن كيف العالم عندك؟»

– «العالم عندي عبارة عن كرة منشقة إلى نصفين– نصف أيمن ونصف أيسر، يدوران في اتجاه رأسي ولكن في حركةٍ متضادة، والكل يعيش ما بين النصفين»

– «أليس هناك أحد على سطح الكرة؟»

– «بلى، هناك بعض الحيوانات الأولية والنباتات المتسلقة.. لكن كيف العالم عندك؟»

– «هو أيضًا عندي كرة منشقة إلى نصفين، ولكن نصف أعلى ونصف أسفل، والنصف الأسفل قلبه ساكن لا يتحرك، أما محيطه الخارجي فيتحرك بعكس اتجاه النصف الأعلى، وإن كان بشكل أسرع نحو الوراء»

– «وليس هناك أحد على سطح الكرة؟»

– «بل هناك كما عندكم.. ولكن الذي يعيش على السطح هو جنس دنيء، وإن كان انتشاره في النصف الأعلى، إلا أن قوته ظاهرة على النصف الأسفل.. ولكن ما الذي جاء بك الآن؟»

– «جئت لكي أدهن جلدي بجلدك، فلعل الرؤيا تتحقق»

- «الآن بيني وبينك خمس عشرة ألف سنة ضوئية»

- «كانت عشرة»

- «لأننا تكلمنا معا؛ فلكي نصل إلى تفاهم مشترك تستغرق خمس آلاف أخرى»

- «أي إن الهوة بيننا ستزيد.. رغم كلامنا معًا»

- «الذي يصل بيننا الكلام، أما الاتصال المادي فالهوة تزيد بشكل خطير، لكن ما الرؤيا؟»

فجأة في أقل من الفمتو–ثانية وجدتها تجردت من كل ما عليها من جلد، فقلت: «أفعى إذًا!»، ثم بدت بجمال يفوق العالم السفلي وبقد ممشوق ككبرياء الحق، إلا أنه يتلوى كأسلوب الباطل، ورأيت بشرتها بيضاء جدًّا وسوداء جدًّا على هيئة مربعات الشطرنج، وارتمت في حضني البعيد.

- «أريد الاحتكاك بك، فلم تبتعد؟»

- «بيني وبينك الآن عشرين ألف سنة، وما ترتمين فيه هو حضني البعيد، وما هو إلا ومضات ضوئية تصلك دون وصولي الفعلي»

ثم شعرتُ في الحال بقشعريرة شديدة تحولت إلى رعشات جبارة، فشعرت باختناق ولذة وألم، وأحسست بشيء ما يطبق عليّ.. أهي جدران الأوردة، أم الحروف الساكنة المبطن بها نفق الصمت، ما هذا؟

- «هذي ومضاتي الضوئية، منذ عشرين ألف سنة ضوئية وهي تبحث عنك لكي تذوب في وجدانك، والآن قد وصلت إليك»

يتمدد أمامي النفق.. يتشقق الصمت فتنبثق بعض الحروف من جوفي تتحرك حركة مدارية خارجة من النفق إلى حيث المدى الضيق، أختنق من

قبضة المدى القابضة على عنق الكلمات.. كانت في النفق تنعم باتساع لا محدود وبحرية انطلاق لا نهائية.

– «ماذا فعلت بي؟»

– «إني أذوب فيك عشقًا»

– «لكنك تقتلين حروفي»

– «بل أقتلك أنت لكي أحييك، أخرجك من نفق الصمت لأحتويك في داخلي حروفًا ساكنة ومتحركةً أيضًا»

– «اتركيني فلي لغتي ولك لغتك، ولن يحدث تزاوج بين حروفنا»

– «سأقتل حروفك وتموت لغتك.. فلا أحتاج إلى شيء منك.. إلا ما ينقصني»

ووجدتني أذوب من النشوة، ودبَّ فيَّ الإرهاق شيئًا فشيئًا كحصان أرهقه الركض وراء المجهول حتى خارت قواه.

ماذا حدث لي، وكيف تسلل هذا الجسد اللامع على نفق الصمت، وكيف استطاع رغم السنوات الضوئية الفارقة بيننا أن يأخذ ما يريد مني دون أن آخذ ما أريد؟ بل ما عاد لي شيء أريده.. فهل يريد من لا إرادة له؟!

# ساحرة الأدب

يعرفونها من (الفيسبوك) باسم (ساحرة الأدب)، ويرونها في الندوات من قبل دخولها باب أي قاعة وذلك من خلال رائحة البرفان المميزة، ولحظة دخولها تحدث جلبة في القاعة ويتوقف من كان على المنصة حتى ينتهي الحاضرون من التملي في ذلك الجسد الممشوق، وتسريحة الشعر التي هي بين بين، وتجلس ساحرة الأدب، ولا أحد يعرف عنها أي شيء غير ذلك، منهم من يقول إنها أرملة، وآخرون مطلقة، وبعض غير متزوجة، حتى سكنها، لا أحد يعرف مكان سكنها فهي بمجرد أن تخرج من باب أي منتدى أدبي تخرج التليفون المحمول وتطلب (أوبر) وتأخذه ويطير بها. تهافتت عليها المنتديات الأدبية لتناقش أعمالها الأدبية، أعمال لا تتعدى أوراقًا مكتوبة بالكمبيوتر، فليس لها أي مطبوعات يشار إليها. ما من ناقد إلا وتمنى أن يتكلم عنها ويسبغ عليها بأثمن الألقاب؛ فهي الضوء الذي سيشق الظلمة التي وقع فيها الأدب، وهي النقلة النوعية في تاريخ الأدب، وهي البصمة التي ستميز عصرها بل كل عصور الأدب، كل ذلك في سبيل ابتسامة خفيفة أو كلمة معسولة من فمها الشهي، وأكثر من ذلك لا يوجد شيء؛ فهي خارج منتدى الأدب لا تعطي أي فرصة لأحد أن يتكلم معها، وبطريقة ساحرة ليس فيها أي نفور، إذ تقول لمن يحاول هذا: "ياااه، كان نفسي أتكلم مع حضرتك، أنا معجبة جدًّا بإبداعك، بس طلبوني في البيت للأهمية، أوعدك إننا هنتقابل، دانا فعلًا عايزة أقعد معاك"، وترميه بنظرة كسهم دخل مسام جلده فأدخله في نشوة يعيش فيها مترقبًا هذا اللقاء، فصوتها له بحة غريبة، تذكرك ببحة تلك المطربة التي نالت شهرتها من جمال بحتها، ناهيك عن نظرتها وطريقة حديثها، تجعل كل من يتحدث معها من الرجال يتعشم خيرًا، أما النساء فالغريب في أنهن لا يشعرن بالغيرة منها، ولا تعرف كيف حازت على

إعجابهن كلهن. حتى تلك الشاعرة التي لا يعجبها العجب ولا الصيام في رجب، تقول عنها: "أي نعم شِعرها مكسور، ويخلو من قواعد الشعر، ولكن قصيدة النثر تستوعب ذلك". وهذا الأديب الروائي المصاب بتضخم الذات يقول عنها: "سردها معقول، خواطر مناسبة لعصرنا هذا". طبعًا كل ذلك يقولونه بصوت مسموع، طمعًا في أن يصل إليها بشكل ما، أما الصوت غير المسموع فلا أدري حقيقته. أما الآخرون الذين يجيئون للاستماع يشردون ويطيرون مع خصلات شعرها التي تتعمد أن تهزها عند الإلقاء فتخرج من التسريحة البين بين لتطير، فتطير معها عقول السامعين، الذين توزع بينهم نظراتها فتلتهب كفوفهم من التصفيق دون أن تظل في مخيلتهم كلمة واحدة مما قالت.

فجأة دون مقدمات ظهر على الفيس بوك منشور صدم الجميع، وهو: "لقد رحلت عن عالمنا ساحرة الأدب". والأغرب من هذه الصدمة ألا يوجد على الفيس غير هذا المنشور، فلا منتدى أعلن حداده، ولا أديب تكرم بنشر نعي، فهذا الإعلان كان على صفحتها فقط! ولم يحرم من بعض التعليقات التي اعتاد الرواد من إلقائها لمن يعرفون ومن لا يعرفون، "البقاء لله، وإنا لله وإنا إليه راجعون، يعزيكم الرب"، وهكذا، وذات يوم نشر أحد رواد المنتديات، وهو ليس بأديب، ولكنه مدّعٍ، منشورًا يتساءل فيه: لماذا لم يقم أي حفل تأبين لساحرة الأدب؟ ووصل عدد التعليقات على هذا المنشور لأكثر من ألف تعليق، منها: "ساحرة الأدب!! ههههه أي أدب؟"، و"لا يجوز عليها غير الرحمة، هو اللي كانت بتقوله أدب؟ ده زبالة"، و"هي موضة ألقاب، كل واحد يختار لنفسه اللي عايزه؟"، و"من لا يملك لمن لا يستحق، أهم كانوا بيجاملوها عشان... أستغفر الله العظيم"، و"مصيبتنا في اللي بيعملوا نفسهم نقاد، وهم

بريالة، بتجرهم شهوتهم"، و"كفاية يا أصدقاء، أهي خدت يومينها، ودلوقتي هتاخد مكانها في مزبلة التاريخ".

وهكذا استمرت التعليقات، وبدأت الحمرة تشتعل غضبًا في وجهها وهي تقرأ هذه التعليقات، وكادت تكسر المحمول الذي تقرأ فيه التعليقات؛ فكل هؤلاء كانوا يتلهفون عليها، ويسجدون تحت قدميها، ولم يسعها إلا أن تصرخ: "يا ولاد الكلب، يا منافقين، آه، عايزة أضرب كل واحد فيكم بالجزمة"، تقلب في صفحتها فوجدتها مهجورة تمامًا بعد أن كانت تكتظ بالرسائل! عادت إلى المنشور لتقرأ تعليقًا للذي جرى وراءها بعد انتهاء إحدى الأمسيات، ليطلب منها أن يتحدث معها ولو لحظة ليبدي إعجابه بما ألقته توًا، فقالت له:

– «معلش بسرعة، عشان مستعجلة»

فقال لها:

– «أنت لا مي زيادة، ولا جورج إليوت، ولا جورج صاند، ولا عائشة التيمورية، ولا بنت الشاطئ، ولا الخنساء، أنت كل هؤلاء معًا.. أنت... أنت...»

فلم تكن واقفة عند انتهاء كلمته فقد جاء (الأوبر) واستقلته واختفت. قال في تعليقه: "المفروض أن هناك كلمة بين كلمة ساحرة وكلمة الأدب سقطت سهوًا، وهي كلمة (قلة)، بكسر القاف لا برفعها، أما التي بضم القاف فقد كسرنا آلاف منها وراءها، أنا مش عارف ممكن لواحدة زي دي يغفر لها ربنا، دي طلبت مني، أستغفرك يا رب".

قذفت بالمحمول في عرض الحائط، وقد أدخلها الغضب في حالة من الذهول.

– «يا ابن الكلب يا سافل، أنا طلبت منك أي حاجة؟ آه لو أطولك، لكن الحمد لله إني رحلت عن عالمكم القذر، عالم النفاق والرياء، عالم الزيف والجهل، إنكم عالم جرنا إلى عصور الجهل والظلام، أنتم سبب كل تخلف لهذا البلد، سألغي الصفحة كما ألغيتكم كلكم من تاريخي»

# جالاتيا

بعد أن انتهى (بجماليون) من صنع تمثاله الذي أسماه (جالاتيا)، واشتد ولعه وعشقه لها، سأل الآلهة بأن تنفخ فيها الروح، وفعلًا لأنه من سلالة الآلهة – فجدُّه (أدونيس)–، استجابت له، وبعثت فيه الروح، وتحول التمثال إلى امرأة فاتنة، أغرت بجماليون فنام معها وأنجب منها (يافوس)، وإلى هنا تختفي المعلومات التي حصلت عليها بأسلوبي الخاص، فقد تخفيت واطلعت على حقائق لم يعرفها التاريخ، منها ما تم بعد ذلك بين بجماليون وجالاتيا.

استيقظت في جالاتيا غريزة الأنثى في السيطرة على الرجل والتسلط عليه، لتنفيذ أوامرها مهما بلغت من الاستحالة، فهي لا تعرف المستحيلا، ولا تعرف حدودًا للثمن الذي تدفعه في السبيل الحصول على ما تريد، طبعًا بنسب متفاوتة. لما ضاق بجماليون من فرض سيطرتها عليه، تضرع إلى الآلهة لكي يأخذ الروح من جالاتيا، ويعيدها إلى سيرتها الأولى، تمثالًا عاجيًا لا روح فيه. تعجبت الآلهة من طلبه، وأين تذهب يافوس؟ فقوبل طلبه بالرفض، فتحدى بينه وبين نفسه الآلهة، وقرر التخلص من جالاتيا بطريقة لا تستطيع أمامها الآلهة إلا تلبية طلبه.

– «حبيبتي جالاتيا، تعالي، سأريك شيئًا لا تتخيلينه»

ذهبت معه إلى مكان صناعة التماثيل، وأراها هناك سائلًا غريبًا.

– «ما هذا يا بجماليون؟»

– «هذا سائل الخلود، إذا دهنتك به أصبح جسدك خالدًا، وظل نضرًا دائمًا، ولا يشيخ مهما طال العمر به، وهو سيطول إلى ما لانهاية، إنه سائل الخلود»

ابتسمت جالاتيا، ومرت أمامها صورة وسوسة الخلود، تلك الكذبة الكبيرة التي تسببت في كشف عورتها، وقالت له:

– «حبيبي، وأنت هل ستموت؟»

– «لا، بل خلودي أنا بعد أن أدهنك بهذا الدهان وأنام معك، فسأنال الخلود الأبدي»

وطاوعته جالاتيا، وطلب منها أن تقف في نفس مكانها الأصلي حينما صنعها تمثالا. وقفت عارية تمامًا، ممشوقة، فاتنة، تبث سحرًا لا يقاوم. أمسك بقارورة الدهان والفرشاة، ونظر إلى عينيها فضعف أمام نظرتها، ارتعد، خفض ناظريه، أغمضهما لكيلا يضعف أمام جبروتها الطاغي.

بدأ بدهان أصابع قدميها، وهو يفكر في نهايتها التي سيصل إليها عندما يصل بالدهان إلى وجهها وتشمه بأنفها، فيضغط على أنفها، ولحظتها لا تجد الآلهة من مخرج إلا أخذ روحها!

صعد من قدميها إلى ساقيها ففخذيها، ثم صعد، وهناك توقف إذ شعر بدوار، وأحس بأن نار الدنيا كلها في يافوخه، الذي سقط عليه الإزميل الذي صنعها به، والذي هوت به جالاتيا على رأسه فهشمته!

صياح

الديك صاح فرحًا لأنه استطاع أن يقتل ليلًا باردًا، كان يضم بين فكيه ذراعًا بضة، هي ذراع لابتسام الفجر، كان الفجر يسعى جاهدًا حتى ولو يرسل عينيه، ولكن لا مفر؛ فالجفون مطبقات كديوان من الشعر، وكان الليل يسعى جاهدًا جدًّا لكي يحظى بسرمدية ولو لنصف مدة، والديك كان عاشقًا يضفّر السكوت في أغنية هادئة كالحلم، يهديها لعصفورته الورقاء حين تستحم بانتشاء القمر الملاح في سنابل الليل، ومن جمال صوتها تشي للديك أن يهدي لها قيثارة يغزلها من بسمة الفجر، لكي تهدهد الشمس إذا جاءت تمشط الصباح.

والليل صار عاشقًا عصفورة كهذه، كيف لديك يملك القلب ولا أملك إلا هسهسات من جناح

لا بدّ أن تكون لي وحدي، وهذا الديك لا يجيء إلا عندما تفتح الشمس عيونها فتصحو، تتعرى، جسد يميل للحمرة، ترمي بخصلات من الضوء، لماذا لا أعيق الشمس حتى لا تجيء؟

لحظتها تعشقني فلا مفرّ من جناحي، ثم قد يكون لي وحدي أنا الكون، فكل ما عليها لا يميل إلا لظلام، والظلام جريء.

تربّص الليل وقبل أن يهز الفجر جفنيه، رمى له شفاهًا قرمزية تلقاها فراح في سكينة، ولم يشعر بتلك الجنة الظلماء إلا حين جاء الديك، صاح الديك نشوانا، ولم يسعه من فرحته قلب البراح،

أليس للديوك حق في احتفال بانتصار جدهم؟

ومنذ ذلك الحين في التوقيت ذاته تغرد الديوك، والديوك ليست إلا بالصياح.

ونظرا لمبدأ الإنصاف في حق الأداء،

فلا صياح للنساء.

# السيجارة

يطلقون عليه (المدخنة)! فهو شره في التدخين، رغم تحذير الأطباء له، إلحاحهم بالإقلاع عن التدخين. حقيقة، حاول كثيرًا؛ لدرجة أنه استخدم السيجارة الصناعية، ولكن قوة أنياب السيجارة التي غرستها في عروقه أقوى من عزيمته. لكم حرم بيته من أساسيات كثيرة، في سبيل وضع مبلغ معين كل شهر للسجائر يكفي لشراء أكثر مما يريده البيت. نال غضب أبيه وأمه بسبب التدخين المبكر، وبسبب عدم المثول لنصائحهما، ونال هجر زوجته له بسبب التدخين السلبي الذي أصابها بحساسية. كم قال لنفسه: "يجب أن أقلع عن التدخين"، وخصوصًا حينما أنجب ابنه الأول. رغم كل هذا، كان يسعى بكل الطرق للبحث عن سجائره المفضلة. في ليلة شديدة البرودة، تتصارع فيها الرياح مع المطر، لو أنك أخرجت يدك من الشباك لتجمدت، دس يده في جيبه فلم يجد إلا سيجارة واحدة في العلبة، ارتدى البالطو الصوف، فليس لديه معطف مطر، ونزل من الدور السادس على السلالم المتهالكة؛ فلم يكن الأسانسير قد زار عمارتهم، مشى على قدميه لمسافات طويلة بحثًا عنها، ولكن دون جدوى، فكل المحلات الصغيرة التي في منطقته قد أجبرها الجو على الإغلاق. ذهب إلى منطقة مجاورة، فلم يوفق في العثور عليها، حتى أوشك على اليأس، بعد أن أغرقته مياه المطر، وتلقفته مخالب الرياح. دله أحد المارين بالصدفة على رجل يبيع السجائر في منزله، وإن كانت أعلى سعرًا من ثمنها الأصلي. أخيرًا أفلح في العثور على معشوقته، علبة السجائر المفضلة! عاد منتشيًا، وصعد السلم، تكاد أنفاسه لا تسمع عنها خبرًا، هدَّه المشوار وجلس إلى مكتبه. تمطى، انتظر حتى يلملم أنفاسه، ورمي بظهره إلى الخلف وأخرج السيجارة إلى منتصف العلبة تقريبًا ونظر إليها يتأملها من بعيد بنظرات بعثت في أوصاله الدفء، وكأنها تستمع إليه بشغف وهو يقول:

"أمن المعقول أن تذليني، وتتسببي في كل ما أنا فيه؟" ابتسم ابتسامة لها مغزى وهو ينظر إلى العلبة نصف المفتوحة التي تزينت له وهي على المكتب، وظل ينظر إليها حتى مرت الثلاثون عامًا وهو لا يتذكر ما حدث لها، بعد أن أصر من لحظتها ألا يخرج السيجارة ولا يضعها في فمه إلى الأبد!

## أبو رمانة

عيونه غائرة، وشعره كثيف ومجعد (أكرت)، ينسدل على كتفيه، ضخم الجثة، ويمسك بعصا في يده، لعابه يسيل على صدره. يشبه الإنسان البدائي، يطلق عليه (أبو رمانة)، وإلى هذه اللحظة لا أعرف سبب هذه التسمية. يقف أمام لعبة (البرواز)، وهي لعبة قمار؛ حيث يضع صاحبها النرد في كوب من البلاستيك، ويكفي الكوب على أرقام وأشكال يغطيها لوح من الزجاج، وعلى الزبون أن يختار الرقم أو الشكل الذي يعتقد أنه يكسب، فإذا صادف ما يظهره النرد بعد رفع الكوب يكسب ضعف المبلغ، وإذا لم يصادف، فهو خاسر. دائمًا أبو رمانة يكسب في هذه اللعبة أو غيرها من الألعاب الأخرى، لذا أصحاب الألعاب يتشاءمون منه، ولا يريدونه في ألعابهم، لكنهم لا يستطيعون منعه، لخوفهم من شيء ما، أما الزبائن فكانوا يستبشرون به، ويدلهم على الأرقام الرابحة، فيكسبون بالفعل.

في ليالي المولد التي تقام كل عام في هذه البلدة، تنصب الخيام، ويدخل أبو رمانة الخيام الخاصة بالنساء، وهن يسحبنه داخل الخيام، ويطلبن منه البركة.

سمعت إحداهن وهي تناديه بصوت غنج، تعال يا شيخ أعطني البركة، وسحبته داخل الخيمة.

تلصصت من فتحة في خلف الخيمة حيث يعم الظلام، وجدتها بمفردها في الخيمة، ورأيته يمتطيها وهي تتأوه تحته، وتتلذذ، وتقول: "بركتك يا شيخ".

فجأة مات الشيخ (علي)، وهكذا كان اسمه الحقيقي، واسم الدلع كما عرفنا (أبو رمانة).

أقسم كل من حضر الغسل أن الماء كان يبرق، ووجهه كان مضيئًا.

اجتمع أولو الأمر وأجمعوا رأيهم على أن يدفنوه في مكانه، وأصبح الناس – ولا سيما النساء– يزورون مقام الشيخ أبو رمانة من أجل البركة!

**نظرة**

الحدث جلل، والسائرون يرددون كلامًا غير مفهوم.
النعش فوق أكتافهم يتأرجح.
رفع رأسه قليلًا، أخرج عينيه من الرداء الأحمر الذي يلف جميع جسده.
ألقى نظرة خاطفة، رآهم يبكون ويضحكون، يتكلمون ويصمتون، يمشون ويقفون.
ماذا يقولون؟

– «وعدتنا وأخلفت وعدك، وقلت إنك تأتي بما لا يستطيع أن يأتي به هؤلاء، سلالة الذي لا عزم له، والآن رأيناهم يجيئون بما لا تستطيع أنت ولا نحن أن نأتي به، فما ضرورة وجودك؟»

– «إذًا تريدون أن تدفنوني، وموعدي لم يأت بعد؟»

– «ما عاد لوجودك فائدة»

– «ولكنني كبيركم الذي علمكم التمرد والمروق والكبر والغرور والـ...»

– «أبانا يا من أرهق نفسه ذلًا، وأرهق نفسه وسوسة، إنهم لم يعودوا ينصتون إليك، ولم يعودوا يطيعونك، فأنت السابق، ونحن اللاحقون، ولنترك هذه الأرض لهم؛ فلم تعد أنت معبود المتمردين»

عاد ووضع رأسه داخل الرداء الأحمر، لون طبيعته وأصله، منها خلق وبها يعذب، هذه النار.

**أبو عصام**

- «ياااه يا أم عصام...أياام!»

- «مالك يا بو عصام، في حاجة في التليفزيون؟»

- «شايفة الوزير ده؟ كان تلميذي، سنين وبقى وزير، وأنا زي ما أنا، مدرس، وإن كان أخيرًا رقوني موجِّه، مش فارقة، هنزيد كام ملطوش في المعاش»

- «كل واحد بياخد نصيبه يا أبو العيال، ربنا يبارك في عمرك»

- «بس الحق يتقال الوزير ده كان كويس، علم وأخلاق زي ما بيقولوا، أول ما مسك الوزارة جه زارنا، وتصدقي وطى عشان يبوس إيدي، بس أنا حشت إيدي بعيد وقلت له ما يصحش، فقال لي: "انت من التلاتة اللي لازم نبوس إيديهم، انت أستاذي، لولاك بعد فضل ربنا ما كنتش بقيت كده"»

- «أيوه يا ولد الناس، انت قلت لي الكلام ده قبل كده، وورتني الوزير ده أكتر من مرة، أهو كل ما ييجي في التليفزيون تعيد الحكاية، أحسن من القرشانة التانية اللي كل ما تشوفها تتف على التليفزيون»

- «بلاش يا ست الكل تعكنني علينا القعدة بسيرتها، ما أنا قلت لك إنها ماكانتش كده، وإني أخدت فيها مقلب، أعمل إيه، كنت فاكر إنها هتبقى أديبة بجد، وتجيب نوبل تاني لمصر، أنا أول ما اكتشفت إنها بتميل للأدب شجعتها، انتي فاكرة كانت بتسألني على حاجات كتير في اللغة، وكل ما تكبر أساعدها أكتر، يااه.. فاكرة لما وصيت عليها رئيس تحرير الجريدة الأدبية؟ كان نفسي تكمل فعلًا في الأدب مش في قلة الأدب»

- «بس أهو قلة الأدب وصلتها يا أبو عصام، كل يوم والتاني في التليفزيون، داوشينا بيها»

- «بس بيستغلوها وبيضحكوا عليها، دي واقفة في الكتابة لغاية النقطة اللي سبتها فيها، بس خدوها بعد كدة عشان... ربنا يسترها معانا، وأهو بمجرد ما

هتنتهي حلاوة اللبانة هيرموها! اللي غايظني إنها كل ما تشوفني بالصدفة في أي مكان في الثقافة تبص لي من فوق لتحت وتعمل إنها مش عارفاني!»

– «ما هو دا الفرق بين الأصيل والخسيس، ما تزعلش نفسك ولا تندم على أي خير عملته، إذا نسيوه البشر عمر اللي خلق البشر ما ينساه، قوم، وسيبك من التليفزيون ويالا بينا نشوف حالنا»

# اكتشاف

أنت الذي اكتشفتها!
فلماذا لا تريد أن ترتمي في حضنها؟
إنها تناديك وتشتهيك لكي تبعث في أوصالك الدفء.
أنت الذي اكتشفتها،
ولقد غمرتك الأضواء بسببها،
ولكم تمطيت بذراعيك بعدما أشبعتك،
وهي التي أطفأت شهوتك التي لا تشبع، شهوة البقاء.
وهي أيضًا لا تشبع،
فإن لم تلتهمك أنت، التهمت نفسها،
إنها تريدك لكي تذوب فيها قطرةً قطرة.
أنت الذي اكتشفتها،
فهيا أطفئ رغبتها؛ فهي دائمًا تتأوه:
هل من مزيد؟
أنت الذي اكتشفتها،
وآن الأوان لكي تكون نهايتك في قلبها.
أنت الذي اكتشفتها،
تلك اللعينة!

**دار العلوم**

رغم أن مجموعه كان يتيح له أن يلتحق بإحدى كليات القمة –على حد قولهم–، فإنه التحق بكلية دار العلوم؛ وذلك لعشقه للغة العربية ولا سيما الشعر. لفتت نظره وهو لم يزل في الصف السادس الابتدائي قصيدة عاطفية لأحد شعراء مدرسة (أبوللو) فلمست أوتار قلبه الذي كان متعلقًا ببنت الجيران، التي لم تزل طفلة، غير أنها الأنثى الوحيدة التي حركت رغبته تجاه الشعر. من تلك اللحظة اعتاد أن يدخل المكتبة لكي يلتهم كتب الشعر. أراد أن يقلد هؤلاء الشعراء؛ فكتب شيئًا شبيهًا لما يكتبون، وأطلَع عليه –على استحياء– أستاذ اللغة العربية وهو في الصف الثاني الإعدادي، فسأله المدرس عمن كتب هذه القصيدة فأجابه:

– «أنا كتبتها يا أستاذ، هل هي شعر؟ أظن أنها خواطر»

– «بل هي شعر، وأنا ظننت أنها لأحد الشعراء وأنت نقلتها فأخطأت في بعض كلماتها؛ مما أفقدها الوزن، ولم تكن على بحر واحد»

– «وما هو الوزن، والبحر يا أستاذ؟»

– «هي ضوابط للشعر بجانب الخيال الذي هو متوفر فيك، أما الوزن فيمكن تعلمه»

– «وأين أتعلمه يا أستاذ؟»

– «في إحدى كليات اللغة العربية، وأهم كلية في هذا الشأن هي كلية دار العلوم»

لم يكن يدرك ما هي كلية دار العلوم، وخجل أن يسأل المدرس عن العلاقة بين ما يدرسه في العلوم من أحياء وكيمياء، والشعر!

كبر حبه لجارته، وكبر معه حبه للشعر، وجاءت المرحلة الثانوية، وافترق عن جارته في التعليم، إذ أن هناك مدرسة خاصة للبنات، واكتفى بأن يراها

من بعيد في مكان إقامتهما، في هذه المنطقة من المدينة التي تشبه القرية في عادتها وتقاليدها، وكأنها قرية كبيرة.

حصل على الثانوية العامة بمجموع كبير يؤهله لأية كلية. انتحبت أمه وهي تحاول أن تقنعه بكلية الطب أو الصيدلة؛ فالمستقبل مضمون ونفسها تناديه "يا دكتور"، أما أبوه فأمنيته أن يدخل الهندسة؛ فالبلاد المتقدمة والناهضة تزدهر فيها مهنة الهندسة، وأيضًا نفسه يناديه "يا باشمهندس". ولكن عقله وقلبه وألف سيف في كلية دار العلوم، اللغة العربية، الشعر، الحب، الحبيبة. ولإيمان أبيه بالحرية، أقنع أمه بأنه يجب أن يدخل الكلية التي يحبها لكي ينجح فيها، ولو أنه تحت ضغطهما دخل أي كلية أخرى سيفشل، وطلب من الأم أن تتظاهر بأنها اقتنعت برغبته لكيلا تضع ابنها فريسة التردد.

سافر إلى القاهرة ملتحقًا بكلية دار العلوم، وسكن في حي السيدة زينب القريب من الكلية، أيام أن كانت الكلية في مبناها القديم بالمبتديان بحي السيدة. أما جارته فاكتفى أهلها بالثانوية العامة.

مرت الأربع سنوات، وأصبح شاعرًا يشار إليه بالبِنان في الكلية. وكان يتلهف على كل إجازة ليسافر إلى حبيبة الطفولة لكي يُسمعها آخر أشعاره، ولكن هيهات؛ فالعادات والتقاليد لا تسمح بذلك، وحتى لو حاولت أن تأتي بيته بأية حيلة، فلا مجال لمقابلتها إلا رسميًا. وكونه يلقي شعرًا فهذا أمرٌ من رابع المستحيلات؛ فالبيئة لا تتماشى مع شعر الفصحى كالقاهرة.

تخرج من الكلية بتفوق، ولكنه لم يكن من المحظوظين بتعيينه معيدًا؛ إذ جاءه التعيين مدرسًا في مرحلة التعليم الأساسي في إحدى المحافظات النائية. حاول أن ينتقل إلى أية محافظة أخرى، وإن كان حلمه في القاهرة، ولكن لم يفلح. بعدما باءت كل محاولاته بالفشل سيطر عليه شيطان الشعر،

ووسوس له أن يستقيل ويذهب إلى القاهرة فهو يحبها ويحفظها، وهناك سيكون مجال أكل العيش متسعًا، وألف مدرسة خاصة تتمناه؛ فشهادته تدل على تفوقه، وكونه شاعرًا سيجعل أي مديرٍ أو صاحب مدرسة يتمناه مدرسًا في مدرسته؛ فالموهبة الشعرية طريق ساحر لتدريس اللغة.

ذهب إلى القاهرة، سكن في نفس الحي، بحث عن عمل، باء بالفشل! ولكن بعد أن ضاقت واستحكمت حلقاتها، فرجت وكان يظنها لا تفرج! لقد قبِلته مدرسة ابتدائية بعيدة عن السكن، ولكن نصف العمى أفضل من كل العمى، وليته نصف بل ثلاثة أرباع العمى؛ فالعمل بالحصة!

خيمت سحابة من الحزن والأسى والكآبة على منزلهم في البلد، فشعور أبيه بخيبة الأمل في ابنه جعلته طريح اليأس، فماذا فعل ابنه أكثر من ابن بلدياتهم الفاشل الذي دخل مدرسة المعلمين ونجح على (الحركرك) واشتغل في مدرسة حكومية، في البلد؟ يعني أحسن من ابنه الذي يشتغل على كف الرحمن بالحصة، بالإضافة إلى الصيت الذي صار فيه هذا الولد الفاشل في مهارته في الدروس الخصوصية. يا ضياع تعبك، وتعب أمه! وضع الأب همه مع هم الأم، وناما معًا إلى الأبد.

شعوره بأنه شاعر جرأه على المشاركة في الندوات والأمسيات الأدبية الشهيرة بالقاهرة. راح وقدم نفسه شاعرًا، وألقى قصيدة عصماء أخذته على بساط البهجة لما سمع التصفيق، وإن لم يكن حارًا، ولكن ما جعله يسبح في عالم الخيال بأنه سيصبح أفضل من شعراء أبوللو، هو أن رجلًا من الحاضرين يبدو عالمًا من علماء اللغة الأدب وخبيرًا في الشعر، تقدم نحوه وهو ينزل من على المنصة وقال له وهو يصافحه:

– «هذا هو الشعر، أبدعت يا شاعر، بورك فيك»

سار في الممر وهو ينظر يمينًا ويسارًا ليرى تعبيرات الوجوه ومدى إعجابها بشعره، وجلس في مكانه وفي خياله الرجال منتشون من قصيدته، أما النساء من المؤكد أنهن يتلهفن على لقائه بعد انتهاء الندوة.

قدم مدير الندوة شاعرًا آخر، استقبله الحاضرون بتصفيقٍ حار؛ مما جعل شاعرنا يظن بأن هذا الشاعر سيكون أفضل وأكثر حنكة وخيالًا منه. وما إن استمع إلى أول شطرةٍ في القصيدة حتى حدَّث نفسه: "ما هذا؟ لا شعر، ولا زفت، ماذا يقول هذا الرجل؟ الكلام سطحي، والصور بسيطة، والكلام مبتذل، والأخطاء العروضية حدِّث ولا حرج، ناهيك عن الأخطاء النحوية، هل هذا هو الشعر؟"، أفاق من شروده على صوت التصفيق الحار، وعلى صوت الرجل الذي يبدو عالمًا وهو يقول بصوت حماسي متقدمًا من الشاعر قبل أن ينزل من المنصة وهو يصافحه بحرارة:

– «هذا هو الشعر، أبدعت يا شاعر، بورك فيك»

لم تسع الصالة اتساع المسافة بين شفتيه، ولا اتساع عينيه من الذهول، نظر حوله وإذ بإحدى الحاضرات تقف وهي تصفق وتقول للشاعر الذي على المنصة:

– «يسعدني، ويشرفني أنك تكون ضيف صالوني الأسبوع القادم»

وقف والأرض تكاد تغوص من ثقل قدميه، تحرك كما تتحرك السلحفاة، وأحس أن الجدران تضيق عليه، وكأنها سجن الحائط الذي سمع عنه. ولولا خوفه من الموت جوعًا ما ذهب إلى العمل.

وكأن المصائب لا تأتي فرادى؛ فها هي الإجازة الصيفية وعليه أن يترك العمل، فهو بالحصة!

ظل يبحث عن عمل يسد به الرمق في شهور الصيف، حتى منَّ عليه القدر بأن يدخل مطعمًا من المطاعم التي اعتادها في حي السيدة، عطف عليه صاحب المطعم وجعله يشتغل في المطعم عاملًا يرفع الأطباق من الطاولات بعد الوجبات وينظفها لاستقبال زبائنها. اعتاد العمل بل ووجده أكثر ربحًا من التدريس؛

فبعض الزبائن الذين يجيئون وفودًا وفودًا لزيارة مقام أم المساكين، يضعون في يده مثلما يضعون في صندوق النذور والصدقات، فينظر إليهم نظرة امتنان وشكر، نظر في صاحب اليد التي أعطته مبلغًا كبيرًا ليشكره ويدعو له، رفع عينه وجهًا لوجه ليرى بجواره زوجته تحملق فيه . إنها حبيبة الطفولة!

غيمة

لن أستيقظ، سأسافر، بل سافرتُ، سافرتُ ممتطيًا غيمة ظاهرها قطن ناصع البياض يسر الناظرين، وباطنها قطرات تذوب قطرةً قطرة حتى تسقطك أسفل السافلين. حدث بيننا تجاذب فهمست لي:

– «إن الشمس تبدد أوصالي، وأخاف أن أرميك رغم أنفي متناثرًا في المجهول»

فقلت لها:

– «لا بد أن أذهب إليه»

فردت باستعجاب:

– «هو قريب منك؛ فلماذا ترهق نفسك بالصعود؟»

– «لقد أرهق غيري نفسه وصعد، وهذه رغبتي»

– «سأرفعك كرد فعل لقطرة مني تجمدت فانعكس عليها شعاع من الشمس، فاصعد به»

صعدت، قابلته، سألته فابتسم، وسألني دون أن أراه:

– «ما ذلك الذي بيدك؟»

– «هذا اختراع اسمه المحمول، أتكلم من خلاله، وأقرأ، وأشاهد، ولي فيه مآرب أخرى»

– «وهل تعرف كيف يعمل، أو نظرية وميكانيزم عمله؟»

– «لا»

فضحك ساخرًا وقال:

– «إذا كنت لا تعرف صناعة من صنعته أنا؛ فكيف تريد أن تعرفني؟ اذهب وحاول أن تعرف عنه شيئًا، وبعدها ستعرف عني»

**ثلاثة+ثلاثة**

هل تذكر يا صاحبي تلك الليلة التي قضيناها معًا في سهرة حمراء، ليلة ظاهرها البهجة والمتعة، والكئوس المتلألئة، والأجساد الراقصة والمترامية على أسرة تلتهمها الشهوة، وباطنها ذلك الحادث المؤلم الذي حدث بعد أن تركنا هذا الوكر قرب الفجر لكي نستقل سيارة أجرة، فلم نجد غير هذا الميكروباص المشئوم، فأخذناه لكي نقترب من مساكننا. لا أذكر غير أنني بعد أيام تحسبها قليلة وهي عدد لا يستهان به، أفقت من تلك الغيبوبة لأدرك أنني في أحد المستشفيات، عرفت فيما بعد أنه مستشفى خاص، وذلك من خلال الفاتورة التي طالبوني بها، وإن كنت لم أختر هذا المستشفى غير أنني علمت أن هناك قانونًا يلزم أي مستشفى باستقبال أي حادث يقع في محيطه! عرفت بعد الإفاقة أن ثالثنا؛ حيث كنا أنت وهو وأنا، فهو ذلك الشريك الثالث الذي قيل لي إنه غادر المستشفى لأن حالته كانت أخف من حالتي، ولما عرف أن المستشفى يطالبه مثلي بفاتورة باهظة لا يستطيع دفعها، طلب تحويله إلى مستشفى حكومي، وبالفعل ذهب إلى مستشفى آخر بعد أن دفع له أهله فاتورة المستشفى الخاص، وإلا تحول الأمر إلى الحكومة التي سترى إذا كانت ستلزمه بالدفع أو تتحمل النفقات! أما أنا فكنت لا أزال رهن الأمر، وما إن استطعت أن أعي بمن حولي حتى سربوا إليَّ الخبر بأنك المسافر الوحيد من بيننا، لقد رحلت أثناء الحادث إلى العالم الآخر، نعم كنت أنت الضحية الوحيدة، لا تتصور يا صاحبي مدى حزني؛ فقد مر الآن عشرون عامًا ولا أدري أين أنت! ولكن تلك الأيام نداولها بين الناس، فقد تبدلت الأيام، خرجت من المستشفى بعد أن دفعت المبلغ، ليس لأنني مؤمن بدفعه، ولكن لأنني قلت في نفسي اعتبر هذا المبلغ فداءً لحياتك أو صدقة. تأملت الحياة من حولي، أين أنا، وأين أنت وأين هو؟! بل وأين هنَّ. كنت أتابع أخبار الجميع

من خلال السؤال أحيانًا والصدفة أحيانًا أخرى، حتى منَّ الله علينا بهذا الاختراع الذي يُسمى (الفيس بوك)، علمت أن بعضهن ما زلن في غيهن، وإن تجددت الأساليب وتطورت وأصبح ما يسمى بالمتعة متوفر على الهواء (أون لاين) وما يسمى بالدفع الفوري عن طريق شبكات اتصالات، نعم لم يعد هناك التليفون ذو القرص أو الرقمي هو الوسيلة الوحيدة للتواصل، لقد اخترعوا ما نسميه هنا بالموبايل، وهناك من يسمونه بالخلوي، حسب ثقافة كل مجتمع، لقد عرفت ذلك من خلال صورة رأيتها في إعلانٍ حيث تعلن إحداهن عن نفسها دون خجل، فها هي تظهر ما تبقى لها من مفاتن، تصور بعد عشرين عامًا ولا زالت تمارس الخطيئة، نعم الآن أسميها خطيئة، ولم لا؟ وهي تبدو كفتاة في العشرين من عمرها، لقد كان سنها أيامنا 19 سنة، ياه، أياام. أما هو، فمن خلال الفيس أيضًا عرفت أن فكره تغير تمامًا، فبدأ ينشر منشورات غريبة، يستنكر فيها وجود الله، ويقول إن فكرة أن العالم قائم على العدل هي عين الظلم، وما الأديان إلا حكايات خرافية تنسجها أقوام من زمن سحيق في ظلمات الجهل لكي يركنوا إليها، وأن فكرة الإله هي من اختراع البشر أنفسهم، لكي يستندوا إليها حماية من الخوف، ويكفي أن كل دين يسخر من الآخر ويتهمه بالتزييف، فكل البشر كافرون وضالون، وكل البشر مؤمنون ومهتدون، والحقيقة ضائعة. هاجموه كثيرًا على صفحات التواصل الاجتماعي، هذا هو اسم الفيس وأخواته. سمعت أخيرًا أن أحد المتملقين رفع ضده قضية تسمى بازدراء الأديان، نعم كل دين يزدري الآخر، ولكن إذا تكلم شخص ما بنفس الفكرة صار مجرمًا وجانيا في حق الدين، ويصرخ، ويصرخ معه أصدقاؤه أو المعتدلون: "أين حرية الفكر؟"، ولكن هل يسمع من في القبور؟ آسف، لا أقصدك؛ فقد حكموا عليه بالسجن رغم أن ما يقوله لا يمثل

مثقال ذرة مما يقوله الآخرون عن ذات الدين، ولكن في بلاد تؤمن فعلا بالحرية وتتمتع بالقوة. ستتعجب إذا علمت أني برغم إيماني بالحرية كنت ممن يطالبون الحكومة بمحاكمة هذا الفاجر! هل تدري لماذا؟ الحقيقة خفت أن يزعزع ما بداخلي من إيمان؛ فمعظم ما يقوله عين الحقيقة، ولكن وجدت نفسي في طريق آخر، على حرف، فخفت أن تنطفئ هذه الجذوة، لذا طالبت بمحاكمته رغم إيماني بالحرية وبمعظم ما يقول، ولكن الخوف والحيرة هما اللذان دفعاني لذلك، مثلما دفعاني لهؤلاء القوم، ويطلقون على أنفسهم، أهل الاستقامة وأهل الهداية، انخرطت معهم يا صاحبي ولست أدري، فأنا لا أفعل إلا ما أراه صوابًا، والحمد لله الذي هداني لهذا، وأنعم عليَّ بزيارة الأماكن المقدسة، وبدأت أرى النور يغزوني، نعم يغزوني، لا تستغرب من الكلمة! نسيت أن أذكر لك ما علمت من أخبارهن، فالصغرى التي كانت 19 عامًا طغت صورتها على الشاشات كما قلت لك من قبل، أما التي كان عمرها حينئذٍ على ما أعتقد ثلاثين عامًا، لقد كانت المعلمة، يعني الريسة، نعم أضحك، لأنني أتذكر أنها استأثرتك لنفسها رغم أنك لم تكن الأكبر سنًا، ولا أقوانا بنية، ولكنها نظرة المرأة، فقد رأت فيك ما لم نكن نراه . فللمرأة حاسةٌ خاصةٌ ترى بها الرجل. إنني هنا أمسح الضحكة من وجهي لترتسم عليه سمات الحزن والأسى، إذ أراني أتساءل: هل رحيلك المفاجئ كان سببًا في تحولها هذا؟ لقد تغيرت 180 درجة، رأيت لها بعض البرامج، نعم ارتدت الحجاب، ولست أدري ما العلاقة بين التوبة والحجاب، وبدأت تعطي محاضرات في فهم الدين واللجوء إلى الله، لماذا تضحك ساخرًا؟ لا، الشيطان يعظ، ربما، لأنني أراها رغم الحجاب تزجج حواجبها، ماذا أعني بتزجج؟ نسيت أنك غير مثقف بفن المرأة، يعني تنتف حواجبها، وتضع مكياجًا،

وترتدي أفخر الملابس، ولم أسمعها مرة واحدة استنكرت ماضيها الذي أخفته تمامًا مع وضوحه. أما الفتاة التي كانت الوسطى بين هذه وتلك، والتي شعرت أنا تجاهها بعاطفةٍ ما، لا أدري أيضًا لماذا، عرفت من خلال صفحات الفيس أنها شقت طريقًا مغايرًا، لقد أقامت ما يسمى بالصالون الأدبي أو الثقافي، وإن كان أهل الخير يقولون إن هذا كوموفلاج، يعني ستارة، فمن يقول إنها لم تزل تدير وكرًا على مستوى راقٍ، ومنهم من يقول تغسل أموالًا، لا يا عبيط، ليس غسيلًا بالماء، هذا اسم آخر للتلاعب بالأموال، ولكن الأهم أنها تلمع كثيرًا في الساحة الأدبية، يقال إنها تستضيف بعض النقاد وتقدم لهم وجبات ساخنة لكي يلمعوا اللاموهوبات، وكلٌ بثوابه، أعني بحسابه.

المهم يا صاحبي مضت بنا الأيام جميعًا، وها أنا بعد عشرين عامًا أتركهم ولا أعلم عنهم شيئًا، لقد حضرت هنا، ولكنني لم أقابلك، ليتك تعلِمُني بمكانك، فلكم أتوق لرؤياك، لست أدري هل سأقيم معك أم ستتباعد بيننا المسافات؟

## لا عزاء

راح يتفحص الوجوه التي أمامه، والتي اكتظ بها الفناء بما رحب. ذلك الوجه المنتفخ الذي يعرفه منذ ثلاثين عامًا، ها هي المرة الأولى طوال هذه السنوات التي جاءه فيها رغم أنه وقف بجواره كثيرًا. وذلك صاحب الشارب الكث والشعر الكثيف الذي لا يترك موضوعًا إلا وتشدق فيه. على جنب يجلس صاحب الجسم الرَّبْعَة حامل دكتوراة في الأدب، إلا أن ألفاظه لا تنم عن أي أدب! أما الشيخ الجليل المبجل الذي ما ترك رسالة دكتوراة أو ماجستير إلا وناقشها مانحًا صاحبها درجة امتياز مع مرتبة الشرف، إذا كان الشرف –كما يقول أهل الخبرة– له رصيد. يا له من متغطرس ذاك صاحب الصوت الأجش. عيونه تجولت بين كل هذه الوجوه التي لا حصر لها، وتساءل: "أين كانت هذه الوجوه عندما مات أبى؟ لم أر منها واحدًا رغم أنني كنت معهم في الحزن قبل الفرح ساعدًا وسندًا وقلبًا مليئًا بالحب والعطف. التمست الأعذار، ونسيت، وانخرطت. كم من احتفال شاركت فيه، وكم من سرادق بللت عروقه بحزني العميق، كم، وكم، وفي خضم هذا الكم رحلت أمي فجأة. رحلت في الوقت الذي أنا فيه في أمس الحاجة إلى يد تشد على يدي، أو كلمة تؤازرني، أو حتى نظرة عطف أتدثر بها. لم أر وجهًا من هذه الوجوه، ولا تلك الوجوه. دفعتني الأيام بين هذه الأوجه مرةً أخرى، وبادرني الجميع بألف حجة وحجة؛ منهم من اتخذ أيمانه جنة، ومنهم من ألصق التهمة بعدم المعرفة، ومنهم من صب اللعنات على التليفون الذي كان دائمًا غير متاح، ومنهم من ألقى اللوم على أعز أصدقائي لأنهم لم يخبروهم".

وتلك الأيام نداولها بين الناس. في زمن تقلب الأوضاع لا تعجب. لا تعجب أن يكون صاحبنا بقدرة قادر متبوئًا رئاسة مؤسسة من مؤسسات الدولة! ولم يعجب هو إذ فوجئ في أحد الصباحات بسيل هذه الوجوه، وتلك، وما

ستكون، تتدفق إلى قصره، بل قصر الدولة الذي تمنحه له مؤقتًا طوال فترة الخدمة. ويا لها من أقنعة ترتدي قسمات الأسى، ويا له من جلسرين يسيل على جبال النفاق. أياد باردة عفنة تمسك بيديه. "سوف أغسل يدي من هذه النتانة، بعد أن ينصرفوا. أعلم ما جاء بهم؛ بل وتوقعته، الغباء سمة من سمات هؤلاء". كادت تصيبه نبال الكليشيهات وسهامها في صدره، ولكنه كان يرتدى درعًا من الصبر وفلسفة الأوضاع، "إذا عاتبت النذل فقد أنقذته. وطالما هو نذل فما فائدة العتاب؟ مهما غسلت جرة المش فسوف تنضح بالمش. دعهم في نفاقهم يعمهون". لم ينبس ببنت شفة. كل ما فعله هو أنه أدلى بيده ليتبرك بلمسها كل من مر عليها ودخل القصر. بينما خرج هو من القصر، ركب السيارة الخاصة بالعمل دون أن ينظر خلفه. نفس الوجوه التي تفحصها علتها الدهشة وهي تنظر إليه راكبًا السيارة دون أن يقول لهم حتى كلمة ردًا على مواساتهم له. وجوه عليها غبرة يرهقها الرياء. ووجه في السيارة يعلوه التعجب. "هؤلاء الأغبياء لا يستحقون حتى أن أعلمهم بأنه ليس لدي أية جنازة، وكل ما في الأمر، وهو يعلم ذلك جيدًا، أن الساعي الغبي أخطأ في تفسير مقولتي [سوف تعمل جنازة] التي قلتها لزوجتي أثناء حديثي عن إحدى جاراتنا في سكننا القديم، التي سنذهب إليها في أمر ضروري يستدعى عدم ذهابي للعمل اليوم، وسوف آخذه إجازة عارضة". ولأنه ما زال يحمل مبادئه، أراد أن يخبر العمل ألا يحضر السائق بالسيارة؛ فهو لا يستغل سيارة العمل في مشاويره الخاصة. ومن المؤكد طبعًا أن الساعي الذي تلقى المكالمة رمى أذنه وهو يقول لزوجته تلك العبارة، رغم أنه كان ممسكًا بسماعة التليفون وواضعًا يده على البوق! كانت زوجته في السيارة التي أخرجها في الصباح الباكر بعد تسخينها، وبعد أن وضع فيها ما سيأخذانه

معهما لشقتهما القديمة. أغلق الشقة قبل أن يستقبل الأفواج والوفود في مدخل القصر، وذهب حيث السيارة. ركب السيارة وزوجته بجواره تسأله:

- «ما الذي أخرك؟»

فقال لها وهو ينظر في مرآة السيارة الجانبية:

- «بعض الموظفين جاءوا في أمر يخص العمل، فوقفت معهم قليلًا»

لم يرد حتى أن يخبر زوجته بما حدث؛ فهم لا يستحقون أن يتحدث عنهم أكثر من ذلك. أغلق كل التليفونات لأنه يعلم أنهم سيتصلون لكي يعرفوا موعد العزاء ومكانه، ولكن لا عزاء يا أيها الأغبياء.

استدعاء

بالتأكيد لا يحبها، إنه على يقين من ذلك، ولكن هناك شيئًا ما يشده إليها. حاول بقدر الإمكان أن يعرف سبب انجذابه نحوها دون زميلاتها، الشكاوى من أولياء الأمور ضدها كثيرة، ورغم ذلك يحاول أن يساعدها ويتغاضى عن أخطائها، وإن كان يسلك سلوكًا مغايرًا مع الأخريات من الزميلات. لا تتكلم كثيرًا ولكن تبتسم ابتسامة تجعله يتأمل هاتين الحمامتين اللتين تعششان في غمازتيها على خديها، وتلك اللوحة المرسومة في عيونها الساهمة.

إنه رئيسها في العمل، ولا يشعر بأية عاطفةٍ أيضًا تجاهها أو تجاه أي أنثى في العمل، فعمله الصارم وسلوكه القاسي على نفسه قبل الآخرين، وضعا بينه وبين كل الزملاء رجالًا ونساءً حواجز يكسوها الاحترام المتبادل؛ فهو من طبعه وضع مسافات بينه وبين الآخرين. وهذه المسافات تتقارب قليلًا في المساء عندما يذهب لممارسة هوايته في المنتديات الثقافية؛ فهو عازف موسيقى ماهر، يمارس الهواية بعزفه في الأمسيات التي يدعى إليها، ولا سيما في ذلك الصرح الذي يجمع بين جدرانه كل أنواع الثقافة؛ ففيه تعقد ندوات أدبية، وتقام معارض للفنون التشكيلية وأمسيات موسيقية. ولأنه يخشى أن تتغلب عليه موهبته وحاسته الفنية في العمل فيضعف إنسانيًا أمام هذا أو هذه، تعمد أن يرتدي وجهًا غير الوجه الحقيقي. في إحدى أمسياته الموسيقية بعد أن انتهى من العزف توجه إلى الجاليري الموجود في ذات المبنى، تجولت عيونه بين اللوحات، وذهبت ذاكرته مع كل لوحة إلى مكان وتوقيت في حياته. أخرجه من سفره في الذاكرة صوت أنثوي رقيق يلقي عليه تحية المساء ويسأله:

– «ما رأي فناننا الكبير في هذه اللوحة؟»

فيلتفت بارتباك طبيعي من خروجه المفاجئ من ذاكرته، ويبتسم ويقول بصوته المميز:

– «لوحة رائعة، وتناسق الألوان في غاية الروعة، والظلال تعكس المغزى من وراء اللوحة»

تبتسم، تشكره على ذوقه الرفيع، وتردف:

– «مثل عزفك تمامًا، فأنا من المعجبات جدًّا بعزفك، إنك تأخذني من هذا العالم إلى عالم السحر والخيال، موسيقاك بساط سحري أسافر عليه دائمًا إلى بلاد العجائب»

يبتسم ويشكرها بدوره، ويستأذن منها، ويغادر المكان. يبدأ نشاطه الصباحي في الوقوف أمام التلاميذ في طابور الصباح وكأنه تمثال، من صرامة وقسوة رغم ملامحه الرقيقة، يلوح بيده مشيرًا لهذا التلميذ وتلك التلميذة، ويقول كلمته المعتادة في الصباح: "لازم نقف بشموخ وحماس ونحن نحيي العلم؛ فتحية العلم هي مقياس انتمائك للوطن، والتفاعل مع النشيد الوطني هو الشرب من مياه النيل العذبة، يجب أن ترتوي منه". ويبدأ عزف النشيد والسلام الوطني من أستاذة الموسيقى، ويقف منتصبًا ويخفي امتعاضه من العزف، فالأستاذة لا تجيد العزف، لا تلعب على الأورج بمهارة، مثلها كقطار السكة الحديد، لا تخرج عن السلم الموسيقي، لا تجيد التلوين، ولكنه يكتم غيظه؛ فلا أحد في المدرسة يعرف أنه يعزف موسيقى بعد الظهر، فالأمر مجرد هواية يمارسها بإتقان، ولا يرى ضرورة للكشف عنها في مكان عمله حتى لا يختلط الحابل بالنابل. يأخذ جولته الصباحية في أدوار المدرسة، ويدخل بعض الفصول ليطمئن على سير العمل بطريقة مقبولة. دخل أحد الفصول وجدها تقف في الفصل وتنفعل وهي تشرح، ولكنها قطعت الشرح وأمرت التلاميذ: "قيام"،

فوقف التلاميذ لتحية المدير، غير أنه لم يدر لماذا ألقى بنظرة خاطفة إليها، فارتعدت فوق شفتيها ابتسامتها الرقيقة، فغادر الفصل.

التقى في المساء بصديقته الفنانة التي طلبت منه أن تلتقي به في مكان غير الجاليري؛ فهي تريد أن تأخذ رأيه في بعض الأشياء المتعلقة بالرسم.

تقابلا، في ذات غروب، في ظل لوحة كبيرة تملأ الكون بألوانها المتناسقة، وظلالها المتدرجة، نظر في عيونها فرأى فيها انعكاسًا غريبًا لمدينة من العشق. مدت أصابعها على الطاولة وكأنها تعزف على البيانو لحنًا هائمًا يتسلل إلى خلجات نفسه. تتحدث عن الحب والزواج والفن والموسيقى، وهو يستمع بفكر بعيد عن المكان، إنه لا يفكر في الزواج، ولكن أصبح يدمن لقاءاته معها، يرى صورتها أمامه حين يعزف، يرى صورتها في عيون زميلاته في العمل، نعم، الآن عرف سر انجذابه لزميلته في العمل، إنها تحمل نسمة خفيفة من نسيم صديقته الفنانة، نفس الغمازتين، ونفس العيون الساهمة ولكن بدرجات متفاوتة. سحبت يدها من على الطاولة ومدت يدها في ملف كبير أخرجت منه لوحة، ابتسمت وقالت له:

– «أريد رأيك في هذه اللوحة»

مد يده، فغر فاه، واتسعت عيناه وعلت شفتيه دهشة غريبة، وهي تقول له:

– «هذه هدية عيد مولدك»

لم يصدق أنها دقيقة في رسم الملامح لهذه الدرجة، لم يصدق أن هذا البورتريه له، صورته المرسومة بأوتار التعطش. كيف عرفت تاريخ ميلاده الذي كاد هو أن ينساه؟ وبالطبع تعرف سنه، إن الجسر بين عمريهما طويل.

مد لها نظرته المفعمة بالعرفان:

- «أشكرك، أنت أحييت عمرًا كاد يندثر، وأضأت مستقبلا كاد يختفي، إني ممتن لك جدًّا»

ولكن رغم هذا لم يجب عن سؤالها الذي لم تنطق به، هل يمكنك التقدم لها للزواج؟

تغيبت زميلته في العمل، سأل عنها، قيل له إنها مريضة، فشعر بالقلق والأسى.

قابلته صديقته الفنانة وأخبرته أن هناك صديقًا عبر لها عن حبه لها، ولمَّح لها بالزواج. وكأن الأمر لا يعنيه، فقال لها:

- «ألف مبروك»

استمر غياب زميلته، ازداد قلقه عليها، وهو يعلم أنها وسيلة وليست غاية.

شعر باشتياق قاتل لمقابلة صديقته الفنانة، اتصل بها وأخبرها أنه لا يستطيع الاستغناء عنها، أنه يريدها دائمًا في حياته، إنها المعزوفة التي لم تكتمل بعد، ويريد أن يكملها. قالت له هل تردُّ على زميلها الذي عبر لها عن حبه لها بالإيجاب أم السلب؟

- «هذا لا يعنيني، ما يعنيني أنك تكونين معي مادام قلبي ينبض»

- «كيف لا يعنيك؟ هل تريدني قطعة موسيقية تستمع لها كلما أحببت؟ هل تريدني أن أهب نفسي لك، دون أن تهب جزءًا من نفسك لي؟»

- «تزوجي وعيشي حياتك الزوجية كما شئت، وخلي حياتك الفنية لي، كوني ملهمتي ولا تكوني زوجتي»

ازداد المرض على زميلته في العمل.

اتصل بصديقته، لم ترد عليه، أرسل لها على الماسنجر لم ترد، لم يعد يراها على صفحات الفيس. ذهب إلى الجاليري فلم تعد تذهب هناك، سأل عنها كنوع من الاطمئنان، لم يجد لسؤاله إجابة.

جاءه خبرٌ حزينٌ أفجعه، لقد رحلت الزميلة. اشتد بكاؤه، وسيطر عليه الحزن. شعر بحاجة ملحة إلى لقاء صديقته. إنه قرر أن يتخذ القرار؛ فلا مفر، لا يستطيع الاستغناء عنها، إنها الوحيدة التي تستحق أن تكون أم أبنائه!

اتصل بها، تليفونها دائمًا مشغول، دخل على (الماسنجر)، حاول أن يرسل لها، جاءته رسالة مفادها أنها عملت له (بلوك).

**و إن و إن**

ربطت بينهما الجيرة، والعمر المتساوي بينهما، ودراستهما معا؛ فهما في السنة الدراسية ذاتها، ولكن في فصلين مختلفين.

طلب منه جاره أن يذاكرا معًا. تذكر المقولة "وان وان، تو وان، ثري نون" (one one, two one, three none)، أي إذا ذاكر الطالب بمفرده نجح، وإذا ذاكر اثنان نجح أحدهما، وإذا ذاكر ثلاثة لم ينجح أحد، فاعتذر لصاحبه، وتحت إلحاح جاره وبالأصح إغرائه، وافق على أن يذاكر معه.

وضع جاره الجدول فلم يجد فيه اللغة العربية، فسأله:

- «أين اللغة العربية؟»

فأجابه:

- «أنت عبقري في اللغة العربية ولا يحتاج منك الأمر إلا مراجعتها ليلة الامتحان، ويكفي أن نذاكر هنا المواد العلمية، أنا أريد مصلحتك، ألا ترى أنني أشرح الرياضيات بأسلوب سلس؟ وتكاد الفيزياء تكون كالعجينة في يدك»

فكر في كلام جاره ووجده ينم عن كل خير. ذاكرا معًا، واستمرا معًا، وأهمل اللغة العربية. في ذات يوم تذكر القصة التي تقول: "كان هناك شيخ كبير ضعيف النظر، يواظب على صلاة الفجر رغم الظلمة وتعثره ووقوعه في الحفر، ولكن ما كان هذا ليثنيه عن صلاة الفجر. في أحد الأيام وجد صبيًا يضيء له الطريق بفانوس صغير، فشكره، ودعا له بالتوفيق وبكل خير. وفي إحدى الليالي أحس والد الصبي بأن ابنه يخرج خفية دون أن يخبره، فتسحب خلفه ليرى ماذا يفعل. لما وجده يضيء الطريق للرجل وبخه، وأنبه وقال له سأحرمك من نعمة الشياطين، وسأطردك من سلطاني إن لم تأتني بخبر

يقين. نظر الابن الصغير لأبيه وهو حزين من ضآلة تفكير أبيه، وعدم ألمعيته، وشرح له:

– «يا أبي، يا أيها الكبير، أنا أضيء له الطريق لكيلا يتعثر، ولا يقع في أي حفرة»

– «ما يقع ولا يروح في داهية، مش كفاية إنه بيحرقني بكل خطوة يروح فيها لصلاة الفجر؟»

– «يا أبي، كل خطوة يتعثر فيها يأخذ عليها حسنة، فإذا أضأت له الطريق لن يتعثر فلن يأخذ حسنة! وصلت يا كبيييير؟»

– «نعم يا شيطاني الصغير، فعلًا ليس كل من يضيء لك الطريق يريد لك الخير»".

قال في نفسه: "إنه يريدني ألا أذاكر اللغة العربية لكي أرسب فيها، سأشترط عليه ألا يذاكر مادة الأحياء التي أكرهها، حتى يرسب فيها، ولكنني سأضاعف وقتي وأذاكر اللغة العربية بمفردي، ولن أقول له، فهو خبيث ويستحق ما سأفعله.

استمر الاثنان في مذاكرتهما معًا بعد أن وافق جاره على شرطه، وبذلا كل ما في وسعهما من جهد في مذاكرة الرياضيات والفيزياء والكيمياء، بعد أن نحيا اللغات كلها والأحياء.

واصلا الساعات بعد الساعات والليالي بعد الليالي، حتى عشية الامتحان.

امتحنا، واستبشرا كل تفوق، ومرت الأيام ثقيلة حتى تظهر نتيجة الامتحان، وظهرت نتيجة الامتحان ونجحا في اللغات كلها، وفي مادة الأحياء، ولكنهما رسبا في الرياضيات والفيزياء والكيمياء!

**زعيم**

لن أقول لك كالأفلام القديمة هذا العبيط زعيم العصابة، ولا هذا الرجل الصالح هو رأس الشر، ولا أن حاميها حراميها، لتكتشف أن هذا المسئول عن الأمن والأمان هو مصدر الخوف والترويع.

لا؛ فالعصابة تؤمن بالديموقراطية، لذلك لا زعيم لها، فكلنا يا عزيزي زعيم!

# ثورة حمار

وللحمير أيضًا ثورة، فصاحب حمارنا يقسو عليه، ويذله، ويشبعه ضربًا كلما تنحنح في جر العربة (الكارُّو) وبما تحمله من بضائع. اغتاظ الحمار من صاحبه، وكثيرًا ما ينهق بينه وبين نفسه.. "لماذا يستهين بي هذا الرجل الأخرق؟ إنه يرهقني بكثرة مشاويره، ولا يقدم لي العلف الكافي لهذا المجهود. إنه أسد عليَّ وفي الحروب نعامة، فهو ليس بالشجاع؛ فلقد رأيته من أيام قليلة وهو يهرع ويرتعد خوفًا لما علم أن هناك نمر قد دخل البلد، وربما كان ذلك اليوم الوحيد الذي رحمني فيه من عنفه وقرفه، فهو يدعِّي القوة، وهو أجبن وأضعف من عود علف ناشف؛ ففي هذا اليوم لم يخرج خوفًا وهلعًا من النمر، فتركني في الزريبة رغمًا عن أنفه.. ههههه. ولم يخرج من داره إلا لما عرف أن الأهالي قد استطاعوا أن يقتلوا النمر ويلقوا به بعيدًا عن حدود البلد".

ضاق الحمار بغباء صاحبه، ففكر، وفكر وأطال التفكير؛ فالحمار في التفكير والرب في التدبير، "دبرلي يا رب"، واستجاب له الرب، فوضع خطة للانتقام من صاحبه.

اهتبل فرصة نوم صاحبه وتسلل من الزريبة، وسار في ظلمة الليل، حتى وصل إلى جثة النمر قبل أن ينفق، وسلخه بالسكين الذي خبأه في بردعته، أو بالأحرى في قطعة البطانية الرثة التي على ظهره، وارتدى جلد النمر وخاطها جيدًا على جسمه بالمخيط الذي سرقه من البردعة.

تمطى الحمار وفرد أطرافه، وعاد إلى البلد متسللًا دون أن يراه أحد، دفع باب الدار بحوافره؛ مما جعل صاحبه يفزع من النوم، وما إن رأى النمر أمامه حتى بال على نفسه وفقد الوعي، ولم يستيقظ إلا عندما سمع نهيق الحمار عاليًا، فإذا به يرى الحمار ينهق من فرحة الانتصار، فأمسك بالكرباج ليشفي غليله، "هو انت حمار يا حمار؟".

# المعاش

لا بد من العمل حتى بعد أن أحيل إلى المعاش؛ فهو لا يحتمل أن يظل في المنزل بصفة دائمة. من الضروري أن يتحرك، فالجسم لو ارتاح في البيت ترهل، وتكاسل، وأصابه المرض، هذا ما كان يقوله لزملائه في العمل، ولكن الحقيقة هي أن معاشه لا يتعدى الألفين من الجنيهات المصرية! في ظل الحياة المصرية! فابنه في الجامعة يستهلك كل المبلغ تقريبًا، وما تسهم به زوجته من مرتبها يكاد يكفي لسداد فواتير المياه والكهرباء، والغاز، والتليفون، والإنترنت، بالإضافة إلى الكمامات التي أصبحت لها ميزانية. فأصبح العمل ضرورة ملحة، وحبذا لو استطاع أن يعمل في مدرسة ولو حتى حارس أمن، فعلى ما يسمع أن بعض أولياء الأمور يمدون يدهم ببعض ما يجودون به لحارس الأمن لكي يراعي أبناءهم، أو نوعًا من الصدقة! حاول أن يعمل في هذا المجال ولكن بلا جدوى، حتى العمل كحارس أمن في مدرسة أصبح نادرًا ويحتاج إلى وسيط. كلم أحد المعارف كي يجد له وظيفة في أي مدرسةٍ خاصة، فرد عليه بأن المدارس الخاصة مؤسسات تجارية وليست جمعيات اجتماعية، فلا يوجد فيها إلا ما تحتاجه فقط، بل أضاف له:

– «انت فاكر إن هدف أصحاب المدارس هو التعليم؟ يا راجل! طبعًا المكسب، وإن لم تكن زي التور، ويمصوا دمك، لا يمكن يشغلوك»

بحث عن العمل في إحدى العمائر، ولكن اللعنة أيضًا حلت؛ فشركات الحراسة تمارس احتكار هذه المهنة! أوشك حذاؤه أن يشكوه للأرض بعد أن تمزق من كثرة المشي. أخيرًا جاءه أحد المعارف الذي سد الدنيا في وجهه ليبشره:

– «ابسط يا عم، وجدت لك عملًا في أحد المصانع، وردية الليل، من الليل حتى الصبح، أصل اللي قبلك رفدوه عشان الكاميرا صورته وهو يغفو أثناء جلوسه، ولا يتحرك حول المصنع، فخلي بالك»

ما باليد حيلة، قَبِل العمل واستلمه؛ فالمرتب أكثر من المعاش، وينعش البيت ويريح المعيشة، أي نعم ليس فيه يد سخية أكثر من المرتب، ولكن لا بأس به.

الحركة بركة، وأين الحركة التي يبرر بها عمله وقد تجاوز الستين من عمره، على الأقل المشوار الذي يذهب به إلى العمل ليلًا ويعود صباحًا حركة!

في البداية كان يصرف المعاش من البريد، يوقع في الدفتر ويأخذ مرتبه ويعود بما لذ وطاب لأهل بيته، ولكن الحكومة، صنعت ما يسمى بالفيزا، وفي إمكانه أن يذهب إلى إحدى الماكينات بدلًا من زحمة البريد التي أصبح لا يتحملها. ليس له خبرة باستخدام الماكينات، استعان بأحد الأفراد الذي تبدو على وجوههم السماحة ليساعده في صرف المرتب. وأخذ المبلغ وذهب ليشتري ما لذ وطاب، "هذه المرة لازم أشتري للولاد تفاح"، اشترى 2 كيلو تفاح مرة واحدة، ومد يده في جيبه لكي يدفع الحساب، فلم يفق إلا على بعض الماء منثورًا على وجهه.

– «فداك يا حاج، الحمد لله اللي جات في الفلوس، أهم شيء صحتك»

فأدرك أنه أغمي عليه بعد أن وضع يده في جيبه ولم يجد المرتب. لم ينم من شدة القلق والتفكير، خاف أن يذهب الشغل فيغلبه النوم فتصوره الكاميرا فيضيع ليس مرتب الشهر فحسب؛ بل كل الشهور. اتصل بأحد زملائه في المصنع ليبلغه بعدم قدرته على الذهاب إلى العمل وحكى له ما حدث له.

قبل موعد عمله بساعات، بالتحديد بعد انتهاء الوردية الأولى، سمعوا طرقًا على الباب، فتحت زوجته وهي تتنهد بأسى. اثنان من زملائه بالعمل جاءا نيابة عن بقية الزملاء للاطمئنان على صحته. مد أحدهما يده بمظروف قائلًا له:

- «الزملا بيسلموا عليك، وكأنك لم تفقد المعاش، ولو تقدر تروح الشغل النهاردة يكون أفضل، لسة قدامك وقت تقدر تستريح فيه»

فتح المظروف ووجد فيه أربعة آلاف جنيه! نظر باندهاش وهو يودع زميليه، وأوشك أن يستفسر، فهذا ضعف المبلغ، ولكن سرعان ما تذكر أنه قال لهم إن معاشه 4 آلاف جنيه حتى يدعم حجته بأنه يعمل حبًا للحركة وليس حاجة للمال.

نبيلة

- «انت فين يا (نبيل)؟»
- «أنا هنا يا أم نبيل، أقرأ خطاب (نبيلة)»
- «نبيلة، وهي نبيلة بجد، الله يرحمه أبوها، كان نفسي يعيش ويشوف هي إيه دلوقتي»

ونظرت من النافذة التي تطل على الحديقة الشاسعة، وتقارن هذه الحديقة بالحارة الضيقة التي كادت الجدران تكبس وتحط على أنفاس من في المنزل، خمسة وثلاثون عامًا مرت بحلوها ومرها منذ أن جاء ليطلب يدها ووافق والدها، واتفق مع الأسرة على موعد الزواج.

على الرغم من أنه لا يملك إلا شقة صغيرة في حارة متواضعة، فقد كان يمتلك قلبًا طيبًا وشخصيةً صبورةً ومجتهدة. لم يسبق لها المعرفة به، لقد عرفها من خلال أم سماح التي كانت تعمل خاطبة، ولكن ليست مثل قدامى الخاطبات؛ فهي لا تتقاضى أجرًا، فكل هدفها التوفيق بين الرءوس. حدثته عنها وعن أخلاقها وعن أهلها الطيبين، وأرته صورتها ليطمئن لوجهها قلبه ويوافق على أن يطلب يدها، رغم إخفاقه في هذا الطلب من أخريات مرارًا وتكرارًا. شجعته أم سماح، وذهَبَت معه والتقى بالأهل وبالفتاة التي ما إن رأته حتى شعرت بارتياح له.

أثمر الزواج عن نبيل ونبيلة، فقد كان وعد أمه لو أن الله أكرمه ببنت لأسماها نبيلة على اسمها، فلما جاء ولد لم يخلف وعده وأسماه نبيل، وحينما أكرمه ببنت أسماها نبيلة لكي يفي بوعده كاملًا. لم تهنأ أم نبيل مع زوجها طويلًا، إذ كان الموت يتربص به، ففاجأه عقب ولادة نبيلة مباشرةً. عاشت أم نبيلة حياةً في غاية الصعوبة؛ فنبيلة ولدت بعيب خَلقي، ولكنها هدية الله،

وهنا عطف أحد أفراد العائلة وتقدم للزواج منها ليعول الطفلين اليتيمين، وهما طفلا أخيه!

وأثمر الزواج في هذه المرة عن طفلتين تتصفان بالشكل الجميل حسب مقاييس المجتمع، وعاش الستة أفراد حياة أسرية يعمها الحب والدفء.

كبر نبيل وأخواته البنات، ولم تنقطع الأقدام عن بيت أم نبيل من شباب مختلف الأعمار والمراكز السياسية والوظيفية، طالبين يد البنتين، غير أن البنتين كانتا ترفضان كل من يتقدم تحت ستارة استكمال الدراسة، وإن كانت الحقيقة هي التعالي، وانتظار من هو أفضل وأنسب لجمالهما الأخاذ.

أما نبيلة فلم تتقدم قدم واحدة وتفك من عليها الحنة –على رأي المثل–، وجاء صاحبها ليطلب يد نبيلة، أرادت أن تخرج من هذا القمقم والعزلة النفسية، وعزمت على أن تدرس لغة أجنبية، ربما ساعدها ذلك في العثور على إحدى الوظائف التي أصبح شرطها اللغة لمن ليس لهم واسطة! إن وجدوا الوظيفة.

لم تكن نبيلة تريد الإنجليزية أو الفرنسية؛ لذا اختارت اللغة الألمانية، فتقدمت إلى أحد مراكز تعليم اللغة الألمانية التابعة للسفارة الألمانية، وداومت الحضور، وانتقلت من مستوى إلى مستوى حتى وصلت لمستوى (إيه بلس)، وحصلت على (كورس) محادثة بدرجة فائقة، هنأها أساتذتها، وفرح أهلها بهذا النجاح، ولا سيما أمها التي كانت تكتم حزنها في قلبها لعدم تقدم أي عريس لبنتها الغالية عليها، بنت الغالي. ذهبت نبيلة لتتسلم الشهادة فاستدعاها أستاذها الألماني الذي انتهت مدة عمله بالمركز واستعد لعودته إلى ألمانيا في مكتبه.

قال لها:

– «سأحدثك بالألمانية، وأريد الرد بالألمانية، فما رأيك؟»

فوافقت، وهي تعلم أنه يريد أن تحل محله في الوظيفة رغم أنها مصرية، ربما استطاع أن يقنع المسئولين بها، حيث إنها تجيد الألمانية كأنها لغتها الأم. بادرها بقوله:

– «منذ أن جئت هنا لتعلم اللغة، لفت انتباهي إصرارك، واجتهادك، ومواظبتك، فوقع في نفسي شيء لم أرد أن أبوح به حتى لا تفهميني خطأ وأكون سببًا في أن تتركي المركز وتتوقفي عن الدراسة، ولكن الآن لا قلق مما سأطلبه؛ فقد أخذتِ الشهادة ولست بحاجة إلى الحضور. ولأنني عملي سأدخل في الموضوع مباشرة. أريد على حسب عادة المصريين أن آتي بيتكم لأطلب يدك!»

احمر وجه نبيلة الأسمر واهتزت يدها اليسرى من شدة المفاجئة، فيدها اليمنى لا تشعر بها منذ ولادتها، وكانت يدها اليسرى هي اليدين، وارتعشت على شفتيها الحروف ولم تعرف ماذا تقول له.. فلم تتماسك، أمن فرحتها، أم من المفاجأة!

تزوجت نبيلة وسافرت مع زوجها إلى ألمانيا واستقرت معه. وعملت هناك في تعليم اللغة العربية للألمان، أو الجاليات الأجنبية.

حققت نبيلة نجاحًا منقطع النظير، ولأنها نبيلة لم تنس أهلها، بل أرسلت لهم، واشترت لهم منزلًا به حديقةٌ شاسعةٌ في منطقة جديدة، هذه الحديقة التي أفاقت الأم من النظر إليها على صوت نبيل الذي جاء لزيارة أمه مع أسرته وهو يقول لها:

- «بتسلم عليكي نبيلة يا أم نبيل»
- «الله يسلمها ويسعدها، نفسي أشوفها»

وقالت في نفسها: "ونفسي أشوف اخواتها البنات متسترين زيها في بيت العدل".

# الهرم

– «أصلك مش فاهم، الحضارة دي أبعد بكثير مما يردده هؤلاء ممن يقال لهم علماء المصريات، إنهم يسيرون وراء خطأ ارتكبه (شامبليون)»

وأسهب في حديثه عن الحضارة المصرية القديمة بمعلومات خليطة، وهو يتأمل الهرم الأكبر، بوقفته المهيبة:

– «هذا الهرم عمره يتجاوز عشرين ألف سنة، ولم يكن كمقبرة أو للبطالة كما يقولون، مصادري الخاصة تقول غير ذلك، حتى أبو الهول يعتقدون أن الذي بناه خفرع، بيألفوا، لماذا لا يكون منقرع بعد ما انتهى من بناء الهرم الثالث؟ لعلمك، الأسماء دي مش صح»

– «ولكن الكل...»

– «أصلك مش فاهم، اسمعني أنا وسيبك من دول، مصادري الخاصة تقول الحقيقة، أما هؤلاء يقولون افتراضات»

ورمق صاحبه بنظرة تنم عن الثقة المفرطة، تؤيدها ابتسامة باهتة ارتسمت على شفتيه المدببتين، المغروستين في وجهه الشاحب.

– «تسابقني في صعود الهرم؟»

– «لا.. أعتقد، أن الصعود فيه خطورة»

– «أصلك مش فاهم، لا خطورة ولا حاجة، مصادري الخاصة تشير لي بطريقة سهلة للصعود!»

– «اصعد وحدك، ونتواصل من خلال المحمول»

بدأ في صعود الهرم، بجسمه الضئيل، والمنتفخ رغم نحوله، وكل فترة يلوِّح لصاحبه أسفل الهرم، وهو رافعٌ ذراعيه إلى أعلى. ولما وصل إلى منتصف الهرم تقريبًا اتصل بصاحبه في المحمول:

- «فاتك نص عمرك، مش قلت لك أصلك مش فاهم، إن الصعود السهل متعة»

واستمر في الصعود حتى وصل إلى القمة ورفع ذراعيه، وتمطى وهو يصيح في الموبايل:

- «أنا في القمة، شايف كل حاجة حواليا، شايف كل الناس تحت زي النمل، لولا كثرتهم ما رأيت منهم أحد، مش قلت لك أصلك مش فاهم، الانفراد بالقمة شيء عظيم لا يستحقه إلا عظيم، فما أعظم أن ترى كل الناس كالنمل، تراهم صغارًا، مش قلت لك...»

- «انت اللي مش فاهم، ولا هتفهم، دا لولا صوتك في المحمول ما عرفت إنك لسة على قيد الحياة، فأنا لا أراك بالمرة!»

# براعة

فنانة، عزفها على القانون لا يضاهيه أمهر عازفي القانون، ولا حتى عبده صالح في زمانه. إذا عزفت تسبح بك في فضاء من الهيام والخيال، وتشعر بأن الزهور والطيور تتمايل مع أجساد السامعين لها بولهٍ شديد، وكأن كل نغمة ترددها معها الجمادات التي حولها؛ فترى الكراسي والحوائط والأثاث كله في حالة من العشق. سألها زميل لها في معهد الموسيقى الذي تعمل فيه:

– «هل مهارتك وبراعتك في العزف بسبب أن بالك مرتاح، أم لأنك موهوبة؟»

– «لا هذا ولا ذاك، الدراسة مع التدريب هي كل شيء، لا علاقة للبال وإن كانت هناك علاقة للموهبة، ولكن هذه العلاقة تموت بلا دراسة أو تدريب»

– «كنت أحسب أن الموهبة والدراسة والتدريب رهن بالحالة النفسية للفنان»

– «لا صحة لهذا؛ فالفنان البارع يستطيع أن يسيطر على حالته النفسية مهما كانت»

صفق الحضور تصفيقًا ملتهبًا بعد أن انتهت من عزف مقطوعتها في آخر بروفات الاستعداد للحفل السنوي الذي يحضره الوزير ومعه الضيوف الأجانب، ليروا هذه الموهبة التي حولت القانون، الآلة الشرقية، إلى آلة تتدرج فيها النغمات من أقل من الربع تون إلى ما يتعدى الدرجة الكاملة، إنها جعلت منها آلة شرقية غربية ببراعة منقطة النظير.

قبل أن تخرج من الكواليس وصل إلى أذنيها همسٌ خفيف، غصبًا عنها أرهفت سمعها لهذا الهمس الذي يتحدث عن الأستاذ (خليل)، زوجها، ويعمل في نفس المعهد، واهتمامه بالطالبة التي تعزف على البيانو، وكيف يختلي بها لأوقات طويلة بحجة تلقينها مقطوعة الحفل السنوي. اختفى الهمس تماما عندمًا مرت بين الكواليس، ولم تجد أحدًا. لعلها الهواجس والوساوس.

حياتها كلها هي زوجها خليل وابنتهما (ماريان)، فهي تدين لهما بكل شيء، ويعيشون معًا كمعزوفة موسيقية متناغمة، الهارموني هو الذي يضبط علاقتهم معًا، وما سمعته إلا نغمة نشاز مرت سريعًا ولن تؤثر على المعزوفة الكبرى.

آن الأوان للحفل السنوي، وحل موعده، وأعدت الدعايات الفائقة للحفل. دقت الساعة السادسة، دخل الوزير ومعه الضيوف من أمهر المايستروات والعازفين العالميين.

بعد السلام الجمهوري، قدم مقدم الحفل الفنانة الموهبة، العازفة العالمية (راندا) في مقطوعة من تأليفها.

رفعت ستارة المسرح، وجلست راندا أمام القانون، وليس هناك ضابط إيقاع؛ فهي استطاعت أن تستغني عن الإيقاع في عزفها.

تسلطت كاميرات التليفزيون، واصطف الجمهور وبدأت براعة عزفها، استمتع الجمهور وأثناء عزفها ألقت بنظرة فلم تر خليل بين الجمهور، تساءلت: أين خليل؟ وأين عازفة البيانو؟ إن فقرتها قد ألغيت لأسباب إدارية، فأين هي؟ وأين خليل؟

بدأت أصابعها تهتز، وبدأت الأوتار تهتز، هربت منها النغمات، تسرب اللحن، فلم يلحظ الجمهور العادي أي تغيير بل وتفاعل مع العزف، وكذلك انسجم الوزير، غير أن الضيوف الأجانب، والعازفين المهرة لم يشعروا بأي براعة أو تميز في عزفها؛ فهي في المستوى العادي جدا، "هؤلاء المصريون دائمًا ما يبالغون في وصف ما يحبونه من أشخاص!".

أحست بارتباك داخلها وهي تجول بعينيها بحثًا عن خليل، لقد اتفق معها بالحضور مع ماريان، فلا هو ولا ماريان، ولا الطالبة.

أين البراعة؟ لا براعة يا راندا، "يا خيبتك يا راندا، شغلت نفسك بالموسيقى، وتركت خليل يشغل نفسه بالطالبة، أكيد ماريان نائمة في البيت، وأكيد خليل مع الطالبة، يتصرمح معها، استغل انشغالي بالحفلة، أنا لازم أضبطه معها"، ولم تضبط في هذه اللحظة تونات اللحن، هرب منها كل تركيز، تعجلت نهاية المعزوفة حتى أحس بها الجمهور، فمن أحبها التمس لها العذر، ربما أحست بمغص مفاجئ، ومن لم يحبها: أهي اللي طالعين بيها السما، أما المحايدون فلا تعليق لهم إلا أنها عازفة دون المستوى، في آخر نغمة موسيقية كانت خارج الكواليس، وكان التصفيق قد انتهى بكل فتور.

اندفعت بسيارتها بأقصى سرعة إلى المنزل، بمجرد أن وضعت المفتاح في الكالون حتى اندفعت إليها ماريان، كنت روعة يا ماما، بس آسفة يا ماما، تعبت فجأة فاضطر بابا يقعد معايا، ومرضيش يتصل بيكي عشان لا تقلقي، واتفرجنا عليكي في التليفزيون!

العقيد

أنا العقيد (أبو المجد) الذي ما إن تخلخل حروفي طبقات الهواء حتى تنخلع القلوب التي في الصدور، وترتعد الأصابع في البيادات. ما من مهمة تستعصي عليهم إلا وقالوا اتركوها للعقيد أبو المجد فهو كفيل بحل عقدتها؛ فأنا العقيد. عندما يسمع الجنود وقع أقدامي يقعون في أنفسهم رهبة واحترامًا، وما إن تدق أقدامي شارع المنزل حتى يسبقني الصمت لكي يخيم في أرجاء المنزل، بل وفي كل ركن من أركان الشارع؛ فالكل يعرف من هو العقيد أبو المجد، حتى زوجتي في أكثر اللحظات العاطفية والحميمية تتعامل معي بحذر، خشية أن ترتكب ولو سهوًا حركة لا تروق لي، فأنا العقيد أبو المجد، طويت المجد تحت أجنحتي وحلقت عاليًا إلى أعلى عليين، حتى رأيت وجهها أمام وجهي بنظراتها التي امتزج فيها التحدي مع الاستسلام والنصر مع الهزيمة والحزن مع الفرح وهي تنظر إليَّ بتلك العيون الضيقة التي عتّم الفقر بريقها ولكنه لم ينل من حدتها، بجسمها الضئيل ويديها التي تطوحهما في الهواء، حتى رأيت الجنود من حولي في حالة ترقب، ماذا سيفعل العقيد أبو المجد؟ فواحد يقول: «سيسحقها بحذائه»، وآخر يعدِّل له ما قال بقوله: «سيأمر السائق بأن يسحقها بالبلدوزر»، ويردد ثالث هامسًا: «ما الذي فعلته في حياتها هذه المرأة حتى تقع بين يدي العقيد أبو المجد؟»، ولا يدري الجنود أنني أمام صوتها القوي رغم نحالة فمها المجعد وهي تقول: «حرام عليك، هو انت ملكش قلب، الله يقصف عمرك يا شيخ»، يا للمصيبة كيف جرؤت أن تقول ذلك؟ ارتسمت الدهشة على وجوه كل الواقفين إلا أنا فقد أصبحت كعود الغاب الصلب من الخارج بينما في الداخل أجوف، أو كقرع العسل شديد الصلادة غير أن جوفه فارغ. يا لها من مهمة بدت في منتهى السهولة، عندما جاء أمر من القيادة العليا بإزالة العشش التي على الطريق، أو

المفترض أن يكون طريقًا، وذهب العمال ليشرعوا في عملهم، فبادرهم القاطنون بالاعتراضات والاحتجاجات والأصوات المرتفعة، فقالوا: "لا يقدر عليهم غير العقيد أبو المجد، كلفوه بهذه المهمة". قبلت المهمة وأنا كما يقولون في بطني بطيخة صيفي؛ فمن هؤلاء الذين يستطيعون الوقوف أمامي؟ وماذا يريدون؟ لقد أعطتهم الحكومة شققًا بديلة، أما هؤلاء الذين يدعون أنه من حقهم في الشقق، فقد بنوا عششهم بلطجة، ولم يكونوا موجودين قبل حصر الأسماء المستحقة للشقق. كونت الفرقة المختارة للذهاب معي وما إن اصطف الجنود ونزلت من السيارة حتى فر الجميع بما يستطيعون حمله من متاعهم، واللوادر والبلدوزرات تهدم وتدوس وتجرف كل ما أمامها، حتى خرجت هذه المرأة النحيلة التي ما تركت التجاعيد مكانًا في جسدها إلا سكنته، وأسنانها الحادة رغم الفراغ الذي يسود معظم فمها الذي تغطيه الشفاه الجافة التي مص الزمان حيويتها، وما إن نظرت في عيوني بقوة ونطقت بكلمة "يقصف عمرك"، فهممت أن أصفعها ونظرت في وجهها بغضب كاد يحرق كل العشش التي أمامي، فرأيت في وجهها وجه جدتي منذ أعوام طويلة بنفس القسمات أو تقترب منها وهي تخرج من عشتها التي تقطن فيها وتصرخ بأعلى صوتها: "فينك يا مقصوف الرقبة يا (ماجد)؟ تعالى شوف ستك عايزة إيه". نعم أنا اسمي ماجد أبو المجد، ولكن جرى العرف أن يسموني أبو المجد رغم أن ماجد وأبو المجد من نفس العائلة، ولكن فضلوا أبو المجد لما فيه من فخامة، علاوة على إنه اسم مركب؛ فكلمة (أبو) تدل على القوة والعزوة. كنت عندما أسمع صوتها أجري من بين زملائي في اللعب وهم يضحكون من شدة خوفي وهلعي وأنا أردد: "أيوه يا ستي جاي". نعم، (يا ستي) هو اللقب الذي كنا نخاطب به جداتنا، مقابل (سيدي) الذي

نخاطب به أجدادنا. أهرول نحو الخص أو العشة المقامة بين العشش الكثيرة.

كنت أعي تمامًا أنه حينما لا تناديني ستي وتزعق بأنها تجلس مع الباشا!

الباشا هو أحد الكبراء في البلد الذي يعيش هؤلاء الغلابة الضعفاء تحت حمايته. كان الباشا يختلي كثيرًا بستي وكانت في ذلك الوقت شابة لم يؤثر على جمالها مرور الأيام. وتمر الأيام وتكبر الجدة ويتزوج أبناؤها ويصبح في مجموعة العشش زوجات وأزواج، وكان الباشا يجلس مع هذه ومع تلك، وخرجنا نحن الصغار إلى نور الدنيا والباشا أمام عيوننا له كل شيء وله الكلمة العليا، تلك الكلمة التي أعتقد بل أوقن أنها أدخلتني كلية الشرطة! كم من الوقت مر حتى مر هذا الشريط أمام عيني وأنا أنظر للمرأة في عيونها التي ملأها التحدي؟ لا أدري، ولكن كنت أدري أنه لا بد من المرور بين القرنين، لا بد أن أجد حلًا لهذا الموقف، وفعلًا وجدت حلًا ولو مؤقتًا حتى أجد لي مخرجًا فيما بعد، فقلت مدعيًا

الشجاعة والمروءة في نفس الوقت وقلت شاخطًا بعلو صوتي:

– «لولا أنك ست كبيرة لكنت صنعت بك ما لا تتصورين، ولكن سأمهلك مهلة لغاية بكرة، بكرة لو جيت ولقيت واحد فيكم سأهرسه بالبلدوزر وأنتم أحرار»

تلكس

(تلكس) هو اللقب الذي حظي به ساعي المصلحة التي أعمل فيها؛ فهو الوحيد الذي يدخل في أي وقت في مكتب رئيس المصلحة، وما إن يخرج من المكتب حتى يخرج وراءه (اورنيك) ذنب لعامل من العاملين! لأنه عمل كذا وقال كذا عن الريس. الكل يعرف أنه (سعيد تلكس)، ولكن لا أحد يجرؤ على مواجهته، ولا حتى مرة واحدة واجه رئيس الهيئة هذا العامل أو الموظف به، فكلامه عند رئيس الهيئة مصدق بالثلث. صار سعيد تلكس هو الشريط اللاصق الموضوع على كل الأفواه بمجرد ظهوره في المكان، حتى الكلام المعتدل يخشى أن يحوره حسب هواه، وفي الوقت ذاته كل الأيادي سخية تدر على سعيد تلكس إرضاءً له، حتى ينجو من إشعال فتيل ضده عند رئيس المصلحة. اليوم الوحيد الذي يتنفس فيه العاملون الصعداء هو يوم يغيب سعيد تلكس، ولكن غياب رئيس المصلحة لا يمنع من أن تلكس يتصل به في البيت، أو ينتظر لثاني يوم. غاب رئيس الهيئة يومًا، ثم يومًا ثانيًا، وهذا التوقيت ليس موعد إجازته الرسمية التي يقضيها في أحد المصايف، وليس هناك مناسبة سيادية وإلا عرف بها الجميع. طال غياب الرئيس فتم تعيين رئيس جديد، استبشر العاملون خيرًا، فهذا الجديد من أبناء المصلحة وبينه وبين تلكس ما صنع الحداد، فلا يطيق أحدهما الآخر.

أول قرار اتخذه الرئيس الجديد هو عدم دخول أي فرد إلى مكتبه دون ضرورة ولمصلحة العمل، وإذا جاء أي عامل دون سبب عرض نفسه للجزاء.

حاول تلكس الدخول، وأن يذيب ما بينهما من جليد، وباءت كل محاولاته بالفشل. ونجح بعد جهد جهيد في الدخول متعللًا بمصلحة الهيئة، وإلا ذهب إلى أعلى جهةٍ يشكو عدم اهتمام الرئيس بمصلحة العمل! ولكن كانت نتيجة

هذا اللقاء خصم ثلاثة أيام من مرتب سعيد تلكس نظرًا للوشاية التي أراد أن يلقي بها ضد أحد الموظفين!

كل ما عرفوه أن الرئيس السابق أصيب بمرض يمنعه من الاستمرار في العمل فأحيل إلى المعاش المبكر.

خرج تلكس من مكتب الرئيس بعد إخطاره بالخصم وهو يبتسم ابتسامة صفراء، ويهرش في ذقنه ويقول ما سمعه السكرتير: "حاضر، الأيام بيننا".

ومرت الأيام، وفجأة جاء قرار نقل رئيس الهيئة إلى منطقة نائية، وتم تعيين رئيس جديد.

اصطف العاملون لاستقبال الرئيس الجديد حتى يتعرف عليهم، وبعد أن تم التعارف فوجئ الجميع بدخول الرئيس الجديد إلى مكتبه وبصحبته سعيد تلكس!

# حديقة الخالدين

يا له من موقع شاعري، أمامنا البحر بزرقته الصافية، وحولنا الخالدون في حديقة الخالدين بمدينة إسكندرية، هذه المدينة التي لها سحر خاص في نفسه، فهو يعشقها عشقا لا نهائيًا. لعل السبب أنها تلامس البحر الذي يلامس تلك البلاد التي عاش فيها طويلًا ويحمل في أعماقه وذاكرته ذكرى أيامٍ لا تنسى، أو لعل لأنها تحمل عبق التاريخ لهذا الشاب الذي بناها وغزا العالم وهو صغير السن، والذي يشاع بأنه من أصل مصري. رذاذ البحر يسبح في الفضاء متعانقًا مع هديره واصلًا بل متعمقًا في كل حواسه، يتنفس رائحته، ويلمس برودته، ويرى نصوعه، ويسمع همساته.

يشرح لابنته حكاية التماثيل التي حولهما؛ فهذا (محمد كُرَيِّم) الذي قاوم الفرنسيين، وهذا أمير البحار الذي قام برحلات كثيرة، وهذا (عبد الله النديم) شاعر الثورة العرابية، وإن كان من قاموا بها قد أسموها هوجة عرابي، ولكن ما أرخص الأسماء، فما أكثر أسماء الثورات في مصر، وما أقل الثورات بل وأندرها فيها!

تستمع إليه ابنته وهي تهز رجليها وكأنها على أرجوحة، وبذكر الثورة تكلم عن ثورة (سيد درويش) في الموسيقى، فقاطعته ابنته في عز حماسه الذي يكنه للفن:

– «بابا هات خمسة جنيه أديها للراجل ده»

فنظر وإذ برجل يتكئ على فتاة صغيرة وينظر أمامه بشكل يوحي بأنه ضرير، وفي يده كيس بلاستيكي به سائل أصفر متصل بخرطوم أسفل الجلابية البيضاء الملطخة ببقع الدم، وفي يد ابنته ورقة، عبارة عن روشتة دواء، وهي تتكلم بصوت يقطع القلب:

– «حاجة لله يا محسنين، أبويا راجل عاجز ومحتاج عملية، ودوا، اللي يعمل خير بيداه التقاه، ربنا ما يحطكوا في ضيق»

وتتغير نغمات صوتها بتغير العبارات التي تقولها بأسلوب يدخل جيبك ليخرج منه ما يشاء. نهضت ابنته ودست في يد الفتاة الخمسة جنيهات، وعادت لتستمع إلى حكاية سيد درويش الذي أحدث ثورة في الموسيقى، واتخذ من الكلمات البسيطة وأهل الحرف موضوعات لموسيقاه، وكيف أن سيد درويش مات في نفس السن التي مات فيها إسكندر الأكبر الذي أنشأ الإسكندرية، فسألته:

– «هو مفيش تمثال له هنا ليه؟»

– «له تمثال كبير في المكان الذي يعتقد أنه نزل فيه أول مرة، على بعد خطوات من هنا»

– «بس يا بابا مفيش تماثيل للزعماء اللي بأدرس تاريخهم في المدرسة، فين السادات وجمال عبد الناصر ومصطفى كامل، وأحمد عرابي وسعد زغلول ودول كلهم؟»

– «إلا سعد زغلول، فهو محظوظ، له في كل شبر تمثال، الوحيد اللي له مقبرة في القاهرة منفردة التصميم، وهنا في إسكندرية أهو هناك له تمثال كبير جدًّا، جنب محطة الرمل»

– «نفسي أشوفه يا بابا»

نهض ليأخذ ابنته ليفرجها على تمثال سعد، فهبطا من سلم الحديقة السفلي، وإذ بابنته تقاطعه:

– «بابا، مش ده شبه الراجل اللي كان عيان، ودي مش شبه البنت اللي كانت معاه؟ بابا ده بيتكلم وبيسب الدين للبنت، وبيقول لها انت خنصرت كام

من الفلوس، بابا، مفيش كيس بلاستيك، ده بيجري ورا البت عشان يضربها، بابا...»

- «يخلق يا بنتي من الشبه أربعين»
- «والجلابية البيضا يا بابا اللي فيها الدم؟»
- «برضه يا بنتي يخلق من الجلابية أربعين!»

# السجادة

تنظر في عينيه فتشهد الحزن والندم يتصارعان، كل منهما يريد أن يحتكر الألم العالق في دموعه المتحجرة في شاشة عينيه، تأبى الخروج خجلًا من تلك العيون التي أمامه؛ إذ يرى فيها البراءة والتوسل والرجاء والاستعطاف في صوت واحد، يخرجون من فم الطفل الصغير الذي لم يبلغ العاشرة من عمره بعد:

– «بابا رجع لي إيدي، وأنا هأشتري السجادة من مصروفي»

تحسس بيمينه المسدس الذي ينتظر على شوق أن يقفز من جرابه، ينتزعه... "كفاية عذاب، كفاية!"، ثم لاذ في صمت قاتل وهو يرى ذلك البهو الواسع والأثاث الفاخر الذي أتى به من أفخم المحلات العالمية، ومن بين هذه القطع المتميزة تلك السجادة العجمي، أو الإيراني، وإن كان الوقت غير مناسب للسؤال ما علاقة العجم بإيران. البهو واحد من بهوين شاسعين في القصر أو الفيلّا التي يقطن فيها هو وزوجته وابنه الوحيد. لم يعرف شيء غير السعادة طريقه إلى هذه الفيلّا حتى بضعة شهور مضت. أمسك طفله بمسدس لعبة وصوبه تجاه السجادة وأطلق عليها الرصاص، فلم تمت كما في تخيله، فذهب خلسة إلى مكتب أبيه وجاء بولاعة سجائره وأراد أن يعذب السجادة، فأشعل طرفًا من الشراشيب. أحست به أمه فهرعت وأطفأت النار التافهة التي لحقت بطرف شرشوبة من السجادة. أصر الأب أن يلقن طفله درسًا فقصد إلى عقابه، ولم ينصت إلى صوت الأم:

– «دي حاجة بسيطة، ولم يحدث أي ضرر ملموس، ودا عيل صغير، كفاية تنبهه»

– «العبرة مش في حجم الخسارة، لازم يتعلم الصح، أنا لا أحب الدلع»

وفعلًا هو لا يحب الدلع؛ فحياته العسكرية، ووجوده معظم عمره بين الجبال، نقلا هذه الجبال إلى داخله في هيئة غلظة، حتى أصبح لا يطيق أن يزور المدينة، ولا يرحب بأي مظهر من مظاهرها، حتى الزواج لم يكن إلا بعد أن راودته فكرة الخوف من أن يموت ويترك كل هذا الثراء لأهل لا يطيقونه ولا يطيقهم، لذلك تزوج زواج صالونات، وأنجب طفله الوحيد لكي يرثه.

أتى بحبل من الألياف الصناعية وقيد يديّ الطفل، وشد الوثاق! شاخطا بعنف:

– «لكي تتعلم ألا تمد يدك إلى أي شيء لا يخصك، وليس فيه فائدة»

وبالفعل لم يمد يده بعد ذلك، الطاعة العمياء لم تأت رغبًا بل جاءت نتيجة الغنغرينا التي دبت في المعصمين. ذهب إلى الأطباء، والمستشفيات العسكرية والمدنية، في الداخل والخارج، صرف تقريبًا كل ما كان من المفترض أن يرثه ابنه! ولكن لا مفر من الحل الذي رآه الأطباء جميعهم، ألا وهو بتر الكفين، وإلا سيصل الأمر إلى بتر الساعدين!

ضاقت به القصور، بل والدنيا بما رحبت، وجاء بعمال أخرجوا السجادة، أخذها في الفضاء الفسيح، أشعل فيها النار لعلها تطفئ النار التي في داخله، ولكن تبعثر رمادها في الفضاء، ولم يتبعثر رماد حياته التي ما عاد لها وجود.

ينظر في عيني طفله، ولا يرى شيئًا غير الدموع التي تنساب منهما وهو يتضرع

- «بابا، والله يا بابا هاشتري السجادة من مصروفي، بس رجع لي إيدي، أرجوك يا بابا»

أطبق الصمت، وعم الذهول، ولم يبدد هذا الصمت الرهيب إلا صوت رصاصةٍ خرجت من مسدسه!

# المعركة

– «سيدي القائد؛ كل التقارير تؤكد انتصارنا الساحق، لقد دمرنا منهم الملايين، وأصبنا الملايين»

– «وهل لدينا خسائر؟»

– «لا تذكر بجانب خسائرهم، يا أفندم»

– «إذًا دعونا نقيم احتفالًا مهيبًا بمناسبة هذا النصر العظيم»

– «لكن يا سيدي، لي رجاءٌ قبل هذا الاحتفال، وهو أن سيادتك تقوم بزيارة للمصابين من قواتنا؛ فهناك ظاهرة غريبة!»

– «ما هي هذه الظاهرة؟»

– «لقد زرنا المستشفيات ووجدنا المصابين كلهم أصيبوا بأمراض غريبة غير التي ألفناها في الحروب الأخرى»

– «تكلم، وأخبرني بالتفاصيل، فأمر قواتنا وجنودنا يهمني بشكل شخصي»

وتكلم، وقال إن المصابين انتقلت لهم عدوى أمراض غير عضوية، وكان يجهل اسمها لولا أنه بحث عنها في معاجم الأمراض البشرية ووجد أنها غير موجودة في كائنات أخرى. وكل المصابين استاءوا وتمنوا الموت بدلًا من إصابتهم بهذه الأمراض البشعة.

استفسر القائد عن هذه الأمراض، فقال له المتحدث باسم الشئون الصحية إن هذه الأمراض لا علاج لها، وهي كثيرة ولا يريد أن يزعج القائد بذكرها، فقال له القائد:

– «اذكر أمثلة»

فرد عليه المسئول:

– «من هذه الأمراض يا أفندم، مرض اسمه النفاق، وآخر اسمه الكذب، وأمراض أخرى أسماؤها عجيبة مثل الغرور، والصلف، والازدواجية،

والشيزوفرانيا، وتدمير الذات، والحقد، والحسد، والرياء، والكبر، والأنانية، و... عفوًا يا أفندم أخجل من ذكر بعض الأمراض الأخرى»

– «قل، ولا تخجل، فنحن نتحدث حديثًا علميًا، ولا بد من معرفة كل شيء»

– «الشهوة، إنه الكائن الوحيد الذي يعبد شهوته؛ فهو غير الكائنات الأخرى التي تمارسها من أجل البقاء، فهو يمارسها عبادةً لها، في حين أنه يتمسك بالفناء ويفني كل شيء من أجل يفنى هو في النهاية، سيدي، اللعنة، اللعنة يا سيدي؛ فالشهوة أفرزت ما يسمى بالشذوذ الجنسي، إنهم يحاولون أن يجدوا له أسماءً بديلة من أجل تجميله وتزيينه ولكن الفعل واحد وفاضح. سيدي عفوًا، داء السرقة يا أفندم من أجل السرقة، وليس من أجل الحاجة، فهم يقتلون بعضهم بعضًا من أجل التملك، رغم أنهم سيتركون كل هذا، ولكنهم يتقاتلون من أجل امتلاك كل ما سيتركونه»

– «وماذا غير ذلك؟»

– «سيدي القائد؛ الأمراض أكثر من أن أحصيها لسيادتك في هذه الفرصة العظيمة القصيرة التي ألتقي بها مع سعادتك، فمن المفترض أن هذا الاجتماع من أجل تنظيم حفل الانتصار، وعلى هامشه مناقشة كيفية الخروج سالمين من هذا الكائن الهش»

– «هش! ماذا تعني؟»

– «سيدي إنه أضعف كائن وأقوى كائن في ذات الوقت، ضعيف ببنيته وجشعه وتمسكه بالفناء، قوي بمكره وخبثه وباستغلال ما أعطي من حيلة ودهاء وذكاء»

– «وهل نجحنا في مقاومة هذه الأسلحة غير النبيلة التي استخدمها ضدنا؟»

– «نعم، فما أتفهه يا سيدي؛ فصوته أعلى من قامته، وحلمه أطول من نومه، فكلما اخترع شيئًا ليصدنا به، راوغناه وهاجمناه بأسلوب جديد»

– «لذلك سأكافئكم جميعًا، اطلبوا ما تريدون من مكافأة»

– «كل القوات وكل الجنود بلا استثناء أجمعوا على طلب واحد يا سيدي»

– «وما هو؟»

– «أن سعادتك تنقذهم من هذا الكائن البشع وتأمرهم بالانسحاب من أجسامهم العفنة؛ فهم لم يعودوا يحتملون هذه الأجساد الفظيعة، إنهم يقولون إن الكائنات الأخرى أفضل أخلاقًا وأفضل حياة من هذا الكائن الذي ظن أنه يقدر علينا، هههههه، عفوًا سيدي، إنه توهم باختراعاته الفتاكة، وغزوه الفضاء وسيطرته تقريبًا على الكوكب أن ينتصر علينا»

– «هههه، فليضحك الجميع، ولتنتش جميع الفيروسات، ولكن لي سؤال قبل أن أنهي الاجتماع»

– «تفضل يا سيدي»

– «لماذا أطلقوا علينا اسم (كورونا)، رغم أن هذا اسم شوكولاتة يحبها أطفالهم؛ أليست رمزا للعظمة، أليست بمعنى تاج؟»

– «نعم يا سيدي، ولذلك أسمونا بهذا الاسم، فالكورونا هي من التاج، وسيادتك، اللاوعي لديهم دفعهم للاعتراف الضمني بانتصارنا عليهم فتوجونا، ومنحونا تاجهم اسمًا»

- «وفعلًا، ألم نهزمهم هزيمة نكراء؟ سأمنح كل فيروس فيكم تاجًا تقديرًا لما بذله من جهد لإبادة هذا الكائن المغرور»

- «قبل أن أنهي الاجتماع سيدي. كيف الخروج من هذه البؤر التي تسمى إنسان؟»

- «سنتحور، ونخرج من هذا الكائن إلى كائن أنقى وأرقى وأبقى»

**ريم**

من شدة فرحته بصدور ديوانه الأول، أخذ عددًا لا بأس به ووزعه على زملائه في الكلية. وازدادت فرحته عندما جاءته تتهادى بخطوتها الرشيقة، ترتدي زيًا أنيقًا، معطف كحلي اللون، وجونلة من اللون نفسه، وتحت المعطف قميص أبيض مشرب بزرقة خفيفة يعكس جمال اللون الكحلي. وجهها مدور طفولي، به غمازتان تتراقصان على وجنتيها تحفهما نظرات ساهمة، وجبين ناصع في لون البراءة، كسا نصفه العلوي مصفوفة من الشعر الأسود الفاحم، ابتسمت وهي تتقدم نحوه..

– «اسمي (ريم)، زميلة.. جئت لأهنئك أولًا على الديوان، وأعطيك رسائل زميلاتي عن الديوان»

أخذ الرسائل ووضعها في يده التي رشقتها في شنطة بسيطة بجواره وهو ممتن لها جدًّا، ونظر إليها بنشوة تقارب لم يتوقعه، سكر من كلماتها وأريجها، فتش في زوايا ذهنه عن كلمات فلم يجد إلا:

– «(حمزة)، كما تعلمين من اسمي على الديوان، منتسب، لأنني خريج كلية عملية، فأردت أن أصقل الموهبة بالدراسة»

أرسلت سهمًا مصيبًا في ابتسامتها وهي تقول:

– «أنا شخصيًا أعجبتني قصائد الديوان»

أعجبتها، وهل أعجبتها قصيدة (الحافة الحمراء)؟ أراد أن يسألها ولكنه تراجع لعلمه بأن أعصابه تخونه في حالات الخجل، فتخرج الكلمات مرتعدة ولا تعبر عما يجيش بصدره تعبيرًا حقيقيًا. في خضم شروده نهضت من مكانها الذي كانت قد جلست فيه، وهو رصيف مرتفع يحيط بالمبني وكأنه مقعد دائري صنع للجلوس عليه. استأذنت منه لتنصرف مستدركة:

– «ألن تغادر؟ المواعيد انتهت، لو خارج، نخرج معًا»

لم يصدق أذنه، إنها فرصة ولا بد من أن يغتنمها، هل ستسير معه إلى خارج مبنى الحرم الجامعي؟ خرجا معًا، سألها عن وجهتها فقالت: "مصر الجديدة"، أما هو فمدينة نصر، عبرا الشارع العمومي لتأخذ (تاكسي) جهة مصر الجديدة، بينما هو سار حتى العباسية لكي يذهب إلى مدينة نصر.

تملكته حيرة شديدة، هل للقصائد كل هذا التأثير؟ هل أعجبت به من خلال القصائد؟ أم مجاملة مبالغ فيها؟ أم لحظة عابرة؟ دخل شقته تعلو وجهه بهجة غامرة، أخرج الرسائل من الشنطة بيد عطرتها لمسات الورق، فتح أول رسالة، فتحولت قسمات وجهه من بهجة غامرة إلى تكشيرة كاسرة، فأول القصيدة كفر، فالرسالة تقول: "يا راجل اختشي على سنك، يا..."، ولم تكن الثانية بأرحم من الأولى إن لم تكن أقسى في ألفاظها، وكذلك الثالثة، فاحترم نفسه ولم يكمل بقية الرسائل حفاظًا على كرامته. وقال لنفسه: "يكفي أن ريم معجبةٌ بها، ولكن ما أدراني؟ ربما هي وسيلة لإعطائي الرسائل ثم تصبح مثلهن، على العموم إن غدًا لناظره قريب".

بدأت العلاقة بينهما تزداد قربًا، يشرح لها الدروس، ويفهمها قواعد اللغة. سألته ذات مرة عن حبيبة شوقي التي قال فيها: "ريم على القاع بين البان والعلم ... أحل سفك دمي في الشهر الحرم"، فابتسم وعرفها أن ريم اسم من أسماء الغزال الأبيض، ضحكت ضحكة خفيفة، وهل كان أبواها يعلمان أنها ستكون غزالة بيضاء؟

وفي إحدى المناسبات قدَّم لها –وقد قدَّم رجلًا وأخَّر أخرى– هدية تذكارية، فقبلتها وهي تبتسم وتشكره بكلمات الشكر. جرَّأه قبولها الهدية أن يسألها الخروج إلى وسط البلد، هناك فيلم رائع في إحدى السينمات، ولكن هل يجرؤ ويسألها الذهاب للسينما، بالطبع لا، ولكن تجرأ بأن يسألها:

– «ما رأيك في السينما؟»

فردت بلهفة:

– «أحب السينما، وخصوصًا الأفلام الرومانسية»

– «هناك فيلم رومانسي في سينما (ديانا)»

– «هل ستدعونني له؟»

– «أتمنى، ما رأيك؟ ندخل اليوم، فهناك حفل مسائي»

– «ولم لا؟ هيا بنا»

جلس بجوارها، ولم يسمع جملة واحدة من حوار الفيلم، ولم ير مشهدًا واحدًا من أحداث الفيلم، فقد كان في دنيا أخرى، شرود عميق، وتساؤلات متشابكة، هل أمد يدي؟ ستفهمني غلط وينتهي الحلم الذي أنا فيه، ولربما انقلبت العلاقة إلى كراهية، ولكنها قبلت الدعوة.. نعم قبلتها من باب البراءة، والثقة، فهل تخون الثقة؟ أو ربما هذا هو العادي عندها؛ فهي من سكان مصر الجديدة، والذهاب إلى السينما شيء شائع، فتراجع وقال لنفسه: "فليكن لمس اليد في مرة أخرى".

بمناسبة السينما والأفلام عرف أن والدتها تعمل في التليفزيون، فاكتملت في ذهنه الصورة: مصر الجديدة والتليفزيون، إذًا هي متفتحة، وحمد الله لأنه لم يبادر بلمس يدها وإلا كانت النتيجة مفزعة. إنها معجبة به، وفارق السن؟ ما بينهما أكثر من ستة عشر عامًا. أراد في يوم ما بعد أن تكررت بينهما اللقاءات، وأصبح تبادل الهدايا بينهما شيئًا طبيعيًا، ورغم أنهما لم ينبسا ببنت شفة عن أية مشاعر باستثناء النظرات التي رآها دليلًا كافيًا لعاطفتها الجياشة نحوه، رغم كل ذلك رمى بكلمة في إحدى المرات عن فارق السن بين الزوج والزوجة وما رأيها في ذلك، فقالت إنها تؤيد فكرة أن تتزوج المرأة من رجل

أكبر منها بكثير لأسباب كثيرة، منها الخبرة والتعقل وكون الزوجة صغيرة سيجعل الزوج قنوعًا بها دائمًا، أي لن ينظر إلى غيرها، وأيضًا لديه ما ادخره من مال، الأمر الذي سيجعلها تعيش حياة رغدة. نعم حياة رغدة، مثل تلك التي تعيشها؛ فملابسها لا تتكرر على جسدها الرشيق الممشوق وكأنها مانيكان، أو عارضة أزياء. إن وضعها المادي كما يبدو مرتفع جدًّا، علاوة على جمالها الشاهق، فهل يحتمل الحلم لو تحقق؟ أراد أن يجس نبضها مرة من المرات، فقال وكأنه يمزح وبسرعةٍ فائقةٍ متمنيا ألا تتوقف كثيرًا عند ما يقوله خوفًا من غضبها:

– «تصوري كنت سألمس إيدك في السينما، ولكن خفت أن تفهميني خطأ؟»

فردت بعيون ضاحكة:

– «ولماذا أفهمك خطأ؟»

وكان الرد سيفًا أصاب أعماقه وجعله يعض أصابعه من الندم، ليته فعل! ولكن بماذا يفيد الندم، ولكم مرة شعر بالندم؟ لقد قال لها ذات مرة:

– «أريد أن أدعوك إلى الغداء»

فأجابته بنوع من الدلال:

– «أحب الحمام البيتي»

– «لا أعرف طبخ الحمام»

– «أعلمك»

يا له من خائب، لم يعرف كيف يواصل الحوار فاكتفى بنظرة ضاحكة مقابل عيونها التي امتلأت بالضحك، وكأنها تقول: أود أن أذهب معك إلى البيت، وهي تعلم أنه يسكن بمفرده!

في إحدى المرات دعاها إلى الذهاب إلى وسط البلد ليشتري لها هدية تأخذها معها إلى البيت، فرحبت بذلك وعبرت عن سعادتها لذوقه وحساسيته، استقلا تاكسي، وجلسا في المقعد الخلفي، وأخذت تنظر من النافذة المجاورة لها، وهو ناظر أمامه يفكر في السعادة التي نزلت عليه من السماء. أحس أن الناس الذين في الشارع يحسدونه على ما فيه من نعمة. لفت نظره دون أن يحول بصره بعض النسوة يتشاجرن في الشارع؛ مما جعل التاكسي يتوقف قليلًا حتى يفسحن له الطريق، وبينما هي شاردة اخترقت أذنه كلمة خرجت من فمها تصف بها النسوة اللاتي يتشاجرن، ويبدو أنها نسيت أنها في معه! فالكلمة انطلقت كرصاصة استقرت في حلمه، فاستيقظ مذعورًا من تفكيره، ولكن دون أن يبدو عليه أي تعبير أو تغيير في جلوسه، لذلك لم تلحظ عليه شيئًا لمَّا اختلست نظرة إليه بعد أن نطقت بتلك الكلمة لتطمئن أنه لم يسمعها، فاطمأنت.

نزلا من التاكسي وذهبا كما خططا واشترى لها ما شاءت من هدايا في هذه المناسبة، وأوصلها كالعادة بالتاكسي الذي من المفترض أن ينزل منه بعد أن يدفع الحساب وتستمر هي به نوعًا من الحرص. عاد إلى شقته ولكن هذه المرة غير كل المرات السابقة، فلم يزل اللفظ يرن في أذنه كإنسان ثرثار لا يتوقف عن الزن، وصراعات تحتدم في نفسه بين اتهام ودفاع، كيف لها وهي من مصر الجديدة تقول مثل هذا اللفظ؟ وماذا تعني مصر الجديدة؛ فالتجار والبوابون والخدم يسكنون في مصر الجديدة، ومصر الجديدة مثلها مثل أي مكان آخر، بالإضافة إلى الذين سافروا إلى الخليج وذلوا أنفسهم وربطوا على بطونهم وجاءوا ليبنوا أو يسكنوا في هذا الحي تملقًا وزيفًا. كلامك صحيح، ولكن هذا يمكن أن ينطبق على مدينة نصر؛ حيث معظم الأبراج لمثل

هؤلاء، وإن كان يسكن بعض الأهالي في مصر الجديدة في أحياء معينة من الطبقات الدنيا؛ بل وأنت رأيت بأم عينك مساكن أقل من مستوى العشوائيات، لكن أسلوبها ولبسها وشياكتها لا تدل على أنها من هذه الطبقة، ولا تنس أن أمها تعمل في التليفزيون، ربما مخرجة أو على الأقل موظفة، وهذا يكفي أن تخرج من دائرة هذا الاتهام. ربما التقطت هذا اللفظ من إحدى زميلاتها دون المستوى، أو من أحد الأفلام! لا، لا يمكن أن يصرحوا بهذا اللفظ في أي فيلم، ولا أعتقد أن إحدى زميلاتها تجرؤ أن تقوله في الجامعة! وما أدراك، لعله في جلسة خاصة، فالنساء يقلن بينهن ما لا يقوله الرجال. أعتقد أن هذا اللفظ خرج من أعماقها فقد لفظته بتنهد، وحقيقة أن الإنسان ينطق بما في داخله إذا غضب أو سكر أو فقد عقله، فالشرود الذي كانت فيه أشبه بالسكر، أو فقد العقل. وبدأت المشاهد تترى أمام عينيه، إنها لم تبد اعتراضًا على قوله بأن يلمسها في السينما، بل وأوحت إليه أنها يمكن أن تذهب معه إلى البيت لكي تعلمه الطبخ، ورأيها عن فارق السن! ألا يوحي هذا برغبتها في الزواج منه ولكن لم تصرح؟ لا أعتقد ما تعتقد، فربما أرادت أن تذهب معك إلى الشقة لترى هل هي مناسبة للزواج أم لا، ولكن بطريقة غير مباشرة، أنت دائمًا تضخم المواقف. وهكذا استمر قلقًا على أرجوحة من الأفكار المتضاربة، ما بين جذب وطرد، إيجاب وسلب، حتى شقشق النور وبدأ في استعداده للذهاب إلى الجامعة رغم أنه من المفترض أن يذهب إلى عمله، فهو منتسب لكي يستمر في عمله، ليس مهمًا، فليكن اليوم إجازة في سبيل الاستقرار.

انتهى اليوم الدراسي وعبرت الشارع لكي تأخذ التاكسي، وعبر هو لكي يتمشى حتى العباسية، ثم توقف بعيدًا وعاد خفية ليستقل تاكسي خلف

التاكسي الذي أخذته. لم تطل المغامرة فقد توقفت بعد ميدان روكسي بعدة خطوات، ودخلت عمارة فخمة في شارع جانبي. أنَّب نفسه وأحس بالذنب، إنها تسكن في برج من الأبراج الراقية! ألم أقل لك إنك دائمًا تضخم المواقف؟ جلس تحت شجرة بعيدة ينفث غله في السجائر، ولكي يجمع أفكاره، وبدأ يتساءل: هل يسأل البواب عنها؟ ربما يضعه هذا في موقف حرج. هل ينتظر لوقت كاف حتى يطمئن قلبه؟ فلينتظر! مرت ساعتان واطمأن قلبه وارتضى بأن يكون ظالمًا في حكمه، وتحرك لكي يستقل أية وسيلة مواصلات، وما إن سار خطوتين حتى فاجأته بخروجها من العمارة، وبنفس الملابس! تسمر في مكانه، وانعقد لسانه. هل يهم إليها؟ ليس من المعقول، فلينتظر حتى يرى أين ستذهب، ربما إلى متجر مجاور، فساعتها يستطيع أن يذهب ويكلمها أيضًا؟ في خضم تفكيره فوجئ بأنها تركب المترو، فجرى بشكل جنوني ليلحق المترو في آخر لحظة. ترقب في كل محطة نزولها، حتى نزلت في محطة منشية الصدر، فنزل، مشت، فمشي وراءها، دخلت شارعًا وخرجت، ودخلت حارة ثم أخرى، وهو وراءها تتخبط قدماه كما تتخبط أفكاره وتكبله الدهشة وطلت الأسئلة وكأنها خناجر تغوص في كل زاوية من زوايا ذهنه. وجد كشكًا على ناصية الحارة أو العطفة التي دخلتها، فتوجه إلى الكشك وأعطى للمرأة التي كانت تديره ورقة بمائتي جنيه، ورقة ما زالت تتحسس خطاها في السوق، واشترى علبة سجائر، رغم أن معه سجائر، ولكن هنا الكل يعرف الكل فخشي أن يشتبه به أحد، فتظاهر بأنه سيشتري السجائر ويعود أدراجه. أحيانًا تأتيك الأخبار ممن لا تتوقعهم، فشهوة الكلام أحيانًا تدفع أصحابها بقول ما تريد وما لا تريد. والإجابة عن سؤالك: "ماذا أتى بك هنا يا ريم؟"، ستأتيك على طبق من فضة؛ فالمرأة متوسطة السن تغمغم بصوت مسموع:

- «ربنا يهديك يا بنت زكية»

فرمى أذنه وتظاهر بالاستفسار:

- «بتكلمينى يا حاجة؟»

- «لا يا أستاذ، باكلم نفسي، وأستعجب من بنات الأيام دي»

- «مالهم يا حاجة، دول غلابة وبيتعبوا في المذاكرة»

- «مذاكرة إيه يا أستاذ، خد بالك، البنات دول حالهم عجب، خد عندك البت اللي عدت دلوقتي»

- «مش واخد بالي»

- «اللي دخلت دلوقتي قدامك على طول»

- «لم أنتبه، ما علينا، مالها؟»

زمت شفتيها، ومصمصتهما، ونظرت نظرةً ماكرة، واستأنفت:

- «أهي مثلا أمها بتشقى طول النهار وتبيع مناديل، بالك، يعني بتعمل بتبيع عشان ترزق، وبتقعد قدام مبنى الراديو، أهي بتقول الناس هناك كويسين وبيكرموها، وشوف بنتها، كل يوم تيجي متأخرة من المدرسة، البنات كلها بتيجي بدري، إلا هي، كل يوم تيجي متأخرة، مش عارفة بتروح فين، بيقولوا الكلية ولا المدرسة، والله يا أستاذ ما أنا عارفة»

واستمرت في ثرثرتها، وقادته قدماه إلى الشارع العمومي، ولم ينتبه لصوت المرأة وهي تناديه ليأخذ باقي الفلوس. ووجد نفسه مندفعًا بلا إرادة ليأخذ تاكسي، وتذكر أنه نسي الباقي عند الكشك، فاعتذر لسائق التاكسي ونزل قبل أن يتحرك، فما معه من فكة لا يكفي لتاكسي، فعاد، لا ليأخذ باقي الفلوس قائلا لنفسه: "هي جات على الفلوس، ياما صرفت، يا روح الست، بناقص المائتين"، واستقل المترو، ونزل في ذات المحطة التي ركبت منها

عند روكسي، واتجه إلى العمارة، ونادى البواب الذي خرج له، وقبل أن يتكلم معه وضع في يده ورقة بعشرين جنيهًا وقال له:

– «ليس معي فكة إلا هذه، ولكن عايز منك خدمة، مين الأستاذة اللي كانت هنا من ساعتين تقريبًا، أو تلاتة؟»

ووصفها للبواب، فنظر البواب بخبث، وضحك ضحكةً خفيفةً وهو يهرش في قفاه:

– «عايزني أرد عليك بعشرين بس؟»

– «هاعوضهالك، فعلًا ممعييش غيرها دلوقتي»

– «ماشي، بس بشرط مش أقل من ورقة بمية المرة الجاية، وعندي هنا المكان، بس اجهز، وأنا آخد لك معها معاد، بس اعمل حسابك، خفيف خفيف»

نجاة

– «هيا البسي ثوبك الثقيل يا (نجاة) وخذي هذا الشال ولفيه حولك، فالجو اليوم بارد»

مدت نجاة يدها لتأخذ الشال وفى عينيها نظرة عدم رضا، فبرغم أن نجاة تتميز بالذكاء الذي ساعدها على التفوق في دراستها، فهي تحمل في نفسها حالة من عدم الرضا عن معيشتها، فدائمًا تحدث نفسها: "لماذا نحن فقراء؟ لماذا لا نكون مثل العائلات الأخرى التي تسكن في القصور بدلًا من هذا المكان السيئ، لماذا لا يكون معي جهاز تليفون (موبايل) مثل باقي الزميلات؟". وتمر في مخيلة نجاة صور زميلاتها وهن ينزلن من سيارات فاخرة عند باب المدرسة، وصورتها وهي تنطوي خوفًا من إخراج تليفونها المتواضع في شكله ونوعيته. تمر كثير من الصور التي تؤرق نجاة نفسيًا.

بينما أم نجاة المعروفة في المنطقة باسم (نجية الخياطة)؛ تلك المهنة التي انقرضت تقريبًا؛ فكل الزبائن اتجهوا نحو الجاهز، ولم يبق من زبائنها سوى الذين لا يجدون مقاساتهم من الجاهز، أو بعض الأسر العريقة التي تعتز بالتفصيل. وسواء من هذا أو ذاك، فهم قلة، ولا يكفي ما تتحصل عليه منهم من دخل للمعيشة إلا بالكاد، في ظل ارتفاع الأسعار في كل شيء، حتى المواصلات التي لا تستخدمها إلا نادرًا، فالمدرسة التي تذهب إليها نجاة وأخوها (نجيب) قريبة من المنزل. ومع كل ذلك الغلاء وضيق العيش الذي نشب بأظفاره في أسرتها، فإن نجية الخياطة امرأة راضية، ودائمًا تقول لابنيها: "أهم ثلاثة أشياء في الحياة: نور العين، وأمل القلب، وحب الناس". ولكن نجاة تقول في نفسها: "بل أهم شيء المال الذي نشترى به النور، ونحقق به الأمل، ونكسب به الحب". هذا هو تفكير نجاة التي لم تتجاوز الرابعة عشرة، أما أخوها نجيب الذي ما زال في المرحلة الابتدائية لا يحمل

رأيًا محددًا، فهو مع أمه عندما تربِّت عليه وتحتضنه، وهو مع أخته عندما تلعب معه وتحضر له الشوكولاتة التي يحبها كلما عادت من المشوار الذي تساعد فيه أمها. ولكن هل نجاة وأمها متناقضتان؟ لا، فنجاة لا تظهر رأيها هذا، وإلا أقنعتها أمها بعكسه، أو غضبت منها أمها، لذلك فهي تحتفظ به في نفسها، أو تبوح به أحيانًا لأخيها. وربما تسأل يا عزيزي أين الأب؟ لن تجد الإجابة، فلا تعوِّد نفسك على أسئلة ثم تنتظر الإجابة بسهولة، فعليك بالبحث والاستنتاج، ولكن انظر إلى نجية، ونجاة، ونجيب، ألا ترى حرفي النون والجيم، ألا يدلك هذا على العلاقة التي بين الزوج والزوجة؟

نعود إلى نجاة أو بالأحرى إلى نجية الخياطة وهي تعطي لابنتها الشال، ثم تعطيها فستانًا أبيض من فساتين الملكات أو الأميرات كما يقولون، وهو موضوع في غلاف كبير من القماش، وتقول لها:

– «انتبهي يا نجاة، احذري أن يقع منك في الأرض فيتسخ بالتراب، وتغضب الست هانم»

والست هانم هذه واحدة من الأسر القليلة التي تحتفظ بالتفصيل عند نجية، ربما حبًا في التفصيل، أو حبًا في فعل الخير والمساعدة، أو في كليهما. والست هانم على المستوى الشخصي رقيقة الطبع ومهذبة اللسان، وتعيش في رغد، أو دع نجاة تحكي لنا.

أخذت نجاة الفستان وحملته بيدها الصغيرة التي اعتلت بها ذراعها لتحتفظ بالفستان بعيدًا عن الأرض، وسارت نجاة تارة في طريق ممهد، وأخرى في طريق غير ممهد. كانت تنظر إلى الفستان وهي مشرئبة وتقول:

– «هل من يرتدى هذا الفستان يشعر بلسعة الفقر، ولدغة الحزن؟ لا، فأنياب الفقر لا تقرض قماش هذا الفستان، وأظافر الحزن لا تنهشه، إنهما لا يقدران إلا على الأقمشة المهترئة!»

وتستمر نجاة في سيرها على قدميها حتى تصل إلى طرف البلدة الصغيرة؛ حيث يقع هذا القصر الفخم المحاط بالأشجار ثم بالسور الحجري، ولم تزل نجاة مشرئبة الرأس، ولكن هذه المرة لكي يصل إصبع يدها الأخرى إلى جرس الباب، ولم تزل تتحدث مع نفسها: "ها ها، لا أعتقد أن السعادة لا تسكن في هذا القصر، فللسعادة أجنحة تطير بها وتحلق في مثل هذه الأماكن، إنها تزدري أماكننا، ولا تفكر في زيارتها، ولو من باب الخطأ، وأين أنياب الفقر وأظافر الحزن من هذا السور الحجري؟". وتضغط نجاة على الجرس، وتنتظر برهة حتى يفتح لها (عم حسين) البواب ويجعلها تمر حتى تصل إلى بهو القصر حيث تقف الست هانم بابتسامتها الحزينة ونظراتها التائهة وتقول:

– «تعالى يا نجاة، خذي منها الفستان يا (أم علي)، خذها يا عم حسين إلى المطبخ»

إنها عادة الست هانم كلما حضرت نجاة؛ فهي تعطى أوامرها بأن تدخل نجاة المطبخ ويقدم لها أطيب وأشهى الطعام والفاكهة، ثم بقطعة الشوكولاتة لأخيها. تأكل نجاة وهي تحاول طرد كلمات أمها "بصلة مع الحب، خير من خروف مع الكره"، لماذا الربط دائمًا بين البصلة والحب والخروف والكره، أليس هناك خروف مع الحب؟ ولكن يا نجاة لا وقت لهذا، كلي واشربي هنيئًا. وبعد أن انتهت نجاة خرجت إلى الحديقة لتذهب إلى الباب الخارجي، حيث تمرق أمامها السيارة الفاخرة ثم تتوقف، وسعادة البيه يجلس في المقعد

الخلفي، بوجهه الوسيم، وقميصه الذي تقريبًا يساوي كل ملابسها بل وملابس أسرتها كلها، ولكنها لم تره أبدًا إلا وفى عينيه نفس نظرة أمه الحزينة، ولم تره أبدًا وهو ينزل من السيارة، فكانت السيارة تمر بعد أن تكون قد خرجت من البوابة، فلا ترى إلا سعادة البيه جالسًا، والسائق وهو يهدئ بالسيارة. لكن هذه المرة تأخرت قليلًا، فوقفت السيارة، فتوارت هي خلف إحدى الأشجار حتى ينزل سعادة البيه، ونزل السائق أولًا واتجه نحو الباب الخلفي ليفتحه لسعادة البيه. ولكنها تسمع عم حسين وأم علي قادمين من خلفها، وتسمع دون قصد ما يقوله عم حسين لأم علي:

– «الست هانم حزينة جدًّا، فالعملية لا أمل فيها، عيونها ابيضت من البكاء، وكل يوم تضعف عن سابقه رغم النظارة، ثم العدسات ثم عملية الليزك. حتى الطبيب الذي في الخارج أرسل لها معتذرًا عن إجراء العملية لعدم وجود أية نسبة من النجاح. تعيسة الست هانم»

تسمع نجاة هذا الكلام وتستغرب، أكل هذا لأن نظرها ضعيف؟ ولكن عم حسين يسرع ليأتي بكرسي متحرك يقدمه نحو السيارة، وتأتي معه أم علي لتمسك بالكرسي، حين يقوم عم حسين والسائق بحمل سعادة البيه ووضعه على الكرسي الذي يقوده عم حسين داخل القصر. يدفع الفضول نجاة لتسأل أم علي:

– «ما به يا أم على؟»

فتجيبها أم علي:

– «إنه لا يتحرك منذ الطفولة، ومرضه لا شفاء له، ربنا يحفظ لك يا بنيتي رجليك»

تتحسس نجاة ساقيها، وتنطلق بهما نحو الفضاء الشاسع، حيث قرأت لافتةً كبيرةً معلقة في خيالها "الحمد لله على قدميَّ فهما أفضل من سيارةٍ بل من طائرة، الحمد لله على الضحكة التي تفردها أمي علينا كل ليلة وهي تقول لنا: "لا تجعلا أفكاركما تذهب بكما لأبعد مما كتب الله لكما"، الحمد لله على الثوب المهترئ الذي لا تنهشه الأحزان"، حتى وصلت إلى بيتها، وما إن فتحت لها أمها حتى نادت بنبرةٍ فرحى وصوت مجلجل:

– «يا نجيب، تعال يا نجيب أحضرت لك الشوكولاتة!»

لك حتى الفجر

بلا شكٍ كنت مندفعًا في زواجي من (ميرڤت)، ورغم ذلك ما زلت أقول إنها من أذكى الفتيات اللاتي كن يقدمن أطباق الطعام الشهية للبحارة، لقد كنت في التاسعة عشر عندما كانت ميرڤت في السابعة عشر؛ حيث كانت تعمل في كافتيريا، وكنت في إجازة لمدة ثلاثة أيام من البحرية ولا يشغلني سوى الطعام والفتيات، إنه الحب من أول نظرة، إنه الشيء المعتاد لأي بحار أعزب، ولقد كنت واحدًا منهم، لم تتعد ميرفت 45 كجم وزنًا، رشيقة وصغيرة في الجسم، وكانت بالنسبة لي معجزة في الأنوثة، إنني لم أقم أية علاقة مع أي أنثى من قبل، ولكن ها أقمتها مع ميرڤت فذقت حلاوة الأنوثة معها قبل أن تنتهى إجازتي، الأمر الذي جعلني أتمنى المزيد حتى الأبد؛

مما دفعني لأطلب منها الزواج، وافقت ورتبنا أمورنا على أن يتم الزواج خلال ستة أشهر على الأكثر، في إجازة من إجازاتي، وتواعدنا لنتقابل قبل أن أعود إلى عملي في الميناء، وفعلًا كانت هناك في الموعد المحدد، كانت أكثر روعةً وجمالًا، لقد كانت شفاهها طعمًا لذيذًا، ألذ بكثير من أحمر الشفاه الذي ابتلعته عفوًا أثناء تقبيلي لها، كان لونها يذكرني بتلك الوردة اليانعة التي تقطفها أمي من حديقتنا.

مر شهر العسل سريعًا وعدت إلى عملي، وظلت ميرفت في المدينة وفي نفس عملها في الكافتيريا، كانت تكتب لي تقريبًا خطابًا كل يوم مؤججًا بالعاطفة، تذكرني بالحب الذي مارسناه معًا، إن هذه الخطابات جعلتها نشطة في قلبي، تتوقد بين عروقي، حتى إنني كدت أفقد عقلي، فأنا هنا لا أملك إلا صورة لها وهي في ملابس البحر، لقد أمعنت النظر فيها أكثر من مائة مرة، حتى جاءني منها خطاب تخبرني فيه بأنها حامل، وأنها تركت العمل مما أصابها من تعب، وأنها الآن في البيت.

أهناك طفل؟ سأصبح أبًا؟ إنني لا أحتمل هذه الفكرة، فأعدت قراءة الرسالة.

"إن بيتنا الواسع كئيب بدونك، لقد أصابني الإرهاق الشديد من عملي في الكافتيريا التي تركتها، بطني بدأت في الدوران والنمو وكذلك قدمي، لقد نصحتني جارتي العزيزة (ليلى) بأن أشغل وقتي بدراسة ليلية، ولكن هل أحتاج لمدرسة لأحظى بحبك، لا.. إنني أشعر بألم لذيذ في أحشائي".

واستمرت في الكتابة، ومع كل شهر في شهور حملها كان يزداد نحيب رسائلها فأشعر بالملل، تصورت شكلها وهي حامل.. لا.. لا أحتمل؛ فهي بالنسبة لي تلك الفتاة الرشيقة الفاتنة التي تتألق وهي ترتدى بنطلونها الجينز، تلك هي صورتها التي أعرفها والتي أحببتها فيها، لم تصغ مرقت لكلام الطبيب في المحافظة على وزنها، أصبحت أقرأ خطاباتها بشيء من القلق يعتريني، ونوع من الخوف يملأ قلبي، حتى وصلتني رسالة تعرفني بقدوم طفلة أسمتها (كاميليا).

أصابني الرعب فجأة، يا رب ماذا فعلت؟ إنني غير مستعد لهذا الوضع في الوقت الحالي.

ما كان كان، أقنعت نفسي مرات عديدة بأنني كنت غبيًا عندما شعرت بالضعف، إنني أحببت هذه الفتاة وتزوجتها، إنها كانت الجميلة، إلا أنني لم أكد أتعرف على هذا الشخص الذي قابلني في أول إجازاتي بعد وصول كاميليا، إن الصوت الذي يصب في أذني تعبيرات الحب هو صوت مرقت، بينما الشعر الذي كان ذهبيًا وناعمًا ها هو الآن خشن وأشعث، لقد ازداد وزنها، أصبحت بلا تنسيق ومبعثرة، إنها امرأة مختلفة فأنا لا أشعر بأي إحساس تجاه هذه المرأة، الأمر الذي أخافني.

لم تتوقف مرقت عن الثرثرة وهي تخبرني كم كانت وحيدة، وكم هي جميل الطفلة، وكيف تركتها مع صديقتها ليلى لنخلو لساعات بمفردنا.

وحاولت أن أقول لنفسي: "إن إنجاب طفل هو حدث بالنسبة لامرأة، وإنك لن تظل صغيرًا للأبد، لكننا كنا صغارًا؛ فهي لم تكن إلا في الثامنة عشر، دع هذه الأفكار، فما هي إلا من شدة التشوق والبعد عنها، يجب أن تتظاهر بالسعادة لكي تكون سعيدًا".

ورسمت على وجهي ابتسامة عريضة ثم قبَّلتها، ورجعت أتساءل في نفسي: "لماذا لم ألحظ هذا من قبل؟ إن بشرتها مليئة بالبقع"، وأخذت أفكر فيما ينتظرني، الشقة والطفلة وثلاثة أسابيع إجازة.. ما الذي يخيفني؟

جاءت مرقت بالطفلة من عند جارتها ليلى وقذفتها بين ذراعيَّ.. إنني لم أعرف حتى كيف أمسك بطفلة، حتى إن كاميليا بدأت في الصراخ بمجرد أن لمستها، إنها بين ذراعي وكأنها قنفذ، حاولت أن أقنع نفسي أنها طفلتي وأنني أبوها ويجب أن أشعر بهذا، إلا أنني لم أشعر بشيء، إنني في مصيدة.

– «إيه الحكاية يا (سمير)، هو انت مبتحبش كاميليا؟»

– «مابحبش؟ لأ طبعا باحبها.. بس أنا أصلي مش متعود على الأطفال، ما هو بقالي 8 شهور في البحر.. متهيألي محتاج شوية عشان أرجع لطبيعتى تاني»

– «طبعًا.. طبعًا (وهي تقترب مني) هارجعك تاني.. حالًا.. دي حتبقى إجازة عسل»

– «أكيد» (متلعثمًا)

غير أن نفسي تود لو أن الزمن يعود للوراء لسنة واحدة حتى أرتب البداية، وان لم يكن فإنني أتمنى أن أعود للبحر وأبتعد عن هنا.

كانت مرڤت معظم الإجازة تترك كاميليا لصديقتها ليلى لكي نتمتع بأكبر قسط من الإجازة، حيث قضينا الوقت في المنتزهات والنوادي، حيث أتأمل في الضوء الخافت أيام أن كنَّا أنا ومرڤت نعيش حياة الحب صافية، وكان النادي أيضًا أحسن حالًا من شقتنا التي امتلأت بحاجيات الطفلة!

ولكم شعرت بحالة إحباط، وحاولت أن أجد تفسيرًا لما أنا فيه دون جدوى، لقد كنت وحيدًا، ومتعطشًا للحب فتزوجت من أول فتاة صادفتني، رغم أنني ما زلت في نفس التعطش وغير مستعد للحياة الزوجية الجادة وتكوين أسرة. إنني فعلًا لم أحب إلا العيش مع امرأة جميلة.. أي امرأة تشبع رغبتي، ولكن للأسف أصبحت في هذه المصيدة، ومع هذا لم أستطع أن أعطي أية مشاعر لطفلتي (ابنتي)، ربما لأنني ما زلت أعزب وليس عندي غريزة الأبوة، لدرجة أنني لم أشعر حتى بأن كاميليا هي ابنتي.

ورغم ذلك فإنني في آخر يوم في الإجازة حاولت استجماع مشاعري بعد حفلة وداع ممتعة، وهبت لليلى جارتنا لإحضار كاميليا التي لم تتآلف معي لهذه اللحظة، وأجلستها على حجري بينما أحتسي كوبًا من الشاي، وحاولت أن ألاعبها ربما تميل نحوها نفسي، وعندما رأتني مرڤت توقفت مندهشة، فقلت لها:

– «مالك؟»

– «أبدًا.. أنا فكرت إنك خلاص نسيت إن إحنا لينا بنت وإنك مش عايزها»

– «لا متفكريش»

قلتها بنوع من السخرية، وإن كان قلبي ينبض بالشفقة وهي تقول:

– «مش قادرة أتحمل بُعدك يا سمير، المرات اللي قبل كده ماكنتش خايفة علشان كنت واثقة إنك هترجع وانت بتحبني، إنما المرة دي أنا مش عارفة..

دانت ماقلتش ليا ولا حتى كلمة حلوة زي ما كنت زمان، ولا حتى بصيت بصة واحدة لبنتك، أنا عارفة إني اتغيرت، بقيت أم، مش زي زمان. قل لي يا سمير أعمل إيه؟»

هذه الكلمات جعلتني أشعر بما لم أشعر به طوال الإجازة كلها، لقد أثرت في نفسي؛ فهل هي ومضة من الحب أم أنها مجرد شفقة التي دفعتني لأقول:

– «اسمعي، أنا مش هاخدعك وأقولك إنه مفيش حاجة، أكيد إحساسي متغير غصب عني، إنه من الغباء إن يقنع شاب فتاة للزواج منه وهو يعلم أنه سيتركها وحيدة لمدة شهرين أو أكثر»

– «لا.. انت ما أقنعتنيش. دي كانت رغبتي يا سمير»

– «أوكيه انت كنت عايزة كده، واللي حصل حصل، لكن كل ما في الأمر إنك اتغيرتي أكتر من اللازم. اسمعي، أنا هكون في مأمورية لمدة سبع شهور وهادبر مبلغ أبعته لك، يعني تقدري تشتركي في صالة جمنازيوم أو معهد تخسيس وتجميل لغاية ما ترجعي مرقت بتاعة زمان اللي أنا عرفتها، وبعدها تروحي تقعدي مع أمي، هي لوحدها من يوم ما أخويا (جمال) سابها وعاش لوحده»

– «يا حبيبي سمير أنا عارفة إنك طيب، أوعدك إني هأعتني بنفسي وأكون أحلى من الأول، بس سيبني هنا عشان أنا باعشقك أكتر من البحر، ولما تيجي نروح نزور والدتك»

تركنا الأمر على هذه الحالة وعدت تلك الليلة إلى البحر، ولم أشعر بجمال ونظافة مركبي بقدر ما شعرت هذه المرة، لقد شعرت بالسعادة لعودتي للمكان الذي أنتمي إليه. لا أدري ما الذي كدر هذه السعادة، أهي حكايات الشبان العزاب الذين قضوا إجازاتهم مرحين مع حبيباتهم، أم هم الرجال المتزوجون

الذين شعروا بالسعادة والحب مع زوجاتهم؟ ولكم تمنيت أن يكون معي في هذه اللحظات أخي جمال، فلكم كنا قريبين من بعضنا بعض، كنت أخبره بأي شيء أشعر به، فهو لا يكبرني إلا بعامين، وكان أكثر وسامة مني، فلكم أحتاج له الآن، فلربما كان باستطاعته إعادة ترتيب مشاعري المتداخلة. لكن جمال له مشاكله الخاصة به؛ فآخر رسالة تسلمتها منه كان قد غير سكنه إلى القاهرة، يا ترى كيف يدير حياته في مدينة كبيرة مثل هذه، وأخذت أقرأ في الخطاب، وعرفت ما أصابه من عِلَّة جعلته يمكث في المستشفى لمدة ليست بالطويلة، ولكن الأطباء نصحوه بحياةٍ أكثر نقاءً وهدوءًا، وأخبرني أن أمي أخبرته بأنني تزوجت وخلفت، ولكن لم يستطع حتى الانتظار حين نزور أمي ليرى مرقت، وبعد ذلك بدأ يخبرني في خطابه:

"توجد أخصائية اجتماعية هنا، جميلة يا سمير، ورغم أنني لا أستطيع أن أجرؤ على الارتباط بها، ولكن من حقي أن أحلم.. أليس كذلك؟ المهم ليه ماتفكرش إنك تيجي تشاركني في أرض من الأراضي الجديدة، وفى نفس الوقت ممكن تستغل خبرتك الميكانيكية في أقرب بلد للأرض الجديدة؟ على العموم فكر في الموضوع ده".

لم أستوعب فكرة جمال في عملية الأرض، لأنني أظن أنه متعلق بها كمن يتعلق بنجم في السماء، لذلك لم أستطع أن أرد عليه.

ما زالت خطابات مرقت تتدفق عليَّ وكلها نسخ مكررة من النواح والشكاوى، ولم تذكر لي أي شيء عن عملها أو عن نفسها، ربما تعد لي مفاجأة.

فعلًا كانت هناك مفاجأة عند عودتي للبيت في الإجازة التالية، لقد كانت حاملًا في سبعة أشهر! شيء محير، لم أوشك أن أستوعب أنني زوج وأب حتى تصدمني.. لِمَ لَمْ تخبرني بذلك؟ إنها واقفة أمامي بشكل لا مبال، كنت

أسمع أن هناك جمالا خاصًا وجاذبية خاصة للمرأة الحامل، فلِمَ لا أراها في مرقت؟ نعم تحاملت على نفسي وعانقتها، ولكن الكلمات خانتني فماذا أقول؟ وماذا أفعل في هذا المكان؛ فالناس مزدحمون في الميناء، بصورة ميكانيكية شققنا طريقنا وسط الزحام متجاهلًا هذا المخلوق الحيواني الذي يسير جواري، فلقد تغيرت تلك التسريحة التي اعتدتها بها لأنها تركت الطبيعة تعربد في شعرها مما غير من شكلها، وكأنها تريد هذا التغيير فارتدت نظارة كمن يخبئ ما تبقى من ملامح معروفة.

لا ليست هي تلك المرأة التي تزوجتها، ربما لو كنت مقيمًا معها وعايشت التغيرات التي ظهرت عليها تدريجيًا لكان الأمر مختلفًا، لكم أحدث نفسي بأن المظهر الخارجي للمرأة ليس كل شيء، وأن المرأة لا تستطيع منع زيادة وزنها عند الحمل، ولكن إن يكن مظهر المرأة هو كل شيء فأي شيء آخر؟ الشخصية؟ العقل؟ ها هي مرقت، مخها كبير كالبقرة وأيضًا لها شخصية... إنني تزوجتها من أجل جمالها، وهذا الجمال ذهب مع الأيام.

ركبت سيارة الأجرة خلف سيدة غريبة، مدام سكينة، شاعرًا بالإحباط، ولكن استسلمت للقدر.

المكان الذي تعتبره مرقت منزلًا كما هو منذ أن تركته من سبعة أشهر، حتى بالنسبة لليلى التي تعتني بكاميليا معظم الوقت، فالشقة مملة، أما كاميليا فكبرت سبعة أشهر وأصبح لها رأس كالبيضة، وشعر أشقر، وملامح دقيقة، لم أندهش أن طفلتي لم تعرفني ولكنها لم تنفر مني، إلا أنها انتفضت عندما احتضنتها فاتحًا فمي كأنني سآكلها، أرجعتها لليلى مرة أخرى معللًا لنفسي أن كل شيء سيأتي في أوانه، ولربما تتولد بعض المشاعر نحو تلك الطفلة ذات الوجه الفأري.

في أثناء ذلك الارتباك أعطتني مرڤت خطابًا من أخي جمال وصل من أسبوعين، وكان عنوان المراسلة على عنوان الوالدة، ويقول في خطابه:

"كيف حالك؟ أنا رجعت لمنزل الأسرة.. لا جديد بالنسبة لصحتي، الأطباء أوصوا بالانطلاق في الأماكن الشاسعة؛ فهل فكرت فيما أبلغتك نحو المزرعة؟ على فكرة، فاكر البنت اللي كلمتك عنها؟ مفاجأة يا سمير.. اتضح أنها تبادلني نفس الشعور. إنها معجزة أن واحدة زي (تيسير) بجمالها وعقلها تحب رجلًا مريضًا مثلي، لكنها الإرادة، والأغرب اتضح إنها من الأرياف يعني ريفية البيئة والطباع، وإن أبيها يريد أن يبيع مزرعته أو يؤجرها، وعايز يعطينا كل واحد ثلث المزرعة ويصبر علينا لغاية ما نقف على رجلينا، وبالمناسبة المزرعة فيها بيت كبير يتسع لي ولأسرتي ولك وأسرتك وأيضًا أمنا. وإن كانت لا تريد أن تترك البيت الكبير خليها فيه ونزورها دايمًا. أنا في انتظار ردك يا سمير في أقرب وقت، ولعلمك تيسير ليها خبرة بأعمال الزراعة وممكن تقوم بالعمل كله زيها زي أي راجل، وأبوها كما قلت لك سينتظر، وهو معاه محل بقالة وألبان، يعنى هيستنى علينا لحد سنة.. إيه رأيك؟".

كنت متحرجًا من أخذ مرڤت لمقابلة أي فرد من عائلتي بعد ما تكلمت عنها بطريقة هستيرية في مدحي لها، ولذلك أفضل أن أعيش بمفردي مع معاناتي، ولا داعي لنشرها خارج نفسي، وأيضًا في حالة الحمل من الصعب الانتقال معها للريف؛ فهي دائمًا في حاجة لطبيب، وليس هناك طبيب في أقرب من خمسة كيلومترات على الأقل، على العموم أنا ميكانيكي ولست مزارعًا،

ورغم هذا أخبرت مرڤت بشأن المزرعة، فكان ردها:

– «إيه يا سمير، جرالك إيه، أنا وانت نروح نعيش في مزرعة مهجورة؟ وكمان ده أي فلاح ممكن يعمل اللي هم عايزينه، ثم ليه ضيعت أربع سنين في الميكانيكا إذا كنت هتشتغل فلاح؟»

ثم اندفعت غاضبة لشقة ليلى لكي تؤكد سخافة الفكرة، على العموم ليست هي بالإنسانة الذي يمكن أن أتحدث معها عن مشاكلي وأنا الذي جعلت نفسي في هذا الموقف، أكثر من واحد وعشرين سنة، أخيرًا وضعت نفسي في مأزق، فتمالكت نفسي وقررت أن أفعل شيئًا ما، فأخذت في اليوم التالي أبحث عن عمل، وفعلًا عثرت على عمل بعد الظهر من الساعة الثانية حتى الحادية عشرة، وكان أجمل ما في الأمر أنني لن أكون مع الأسرة في فترة المساء، لن أكون مع أناس غرباء عني مثل مرقت وكاميليا ابنتي، هذا بالفعل ما كنت أشعر به تجاههما، وقبل أن أرتب أموري كانت مرقت في المستشفى لتلد (كارم)، حدقت فيه بشيء من الانزعاج فهو يشبه القرد أكثر من المخلوق البشري. حاولت أن أشعر أنه ابني لكن لا فائدة؛ فلم أجد عندي أية مشاعر ناحيته، وكل الذي شعرت به أن الفخ يزداد إحكامه حولي أو أن الطبيعة لم تضع بداخلي غريزة الأبوة، وبالإضافة لذلك شعرت بالشفقة علينا، فكلانا لم يعد عنده الرغبة في أن يكون أبًا أو أمًا.. أو زوج وزوجة، وأصبحت فكرة الذهاب إلى جمال تسيطر على تفكيري، على الأقل أنني سأنعم هناك بصحبة أخي، وأنه سيجعلني أشعر بأنني ما زلت قادرًا على حب شخص ما، أنني ما زلت إنسانًا.. فعزمت على رحلة قصيرة له؛ فمرقت ترغب بشدة في زيارة أمها وزوج أمها في بلدها، وما زالت تزِن عليَّ ليل نهار. الوقت الآن مناسب لزيارة أمها في الوقت الذي أقوم بتجربة مع جمال، فعرضت عليها الفكرة، فما كان منها إلا أنها ثارت محذرة:

– «اوعى تفكر يا سمير تسيبنا وتمشي، إذا كنت عايزني أزور أمي لازم تكون معايا، أومال مين هياخهد باله من العيال معايا في السفر؟ وحتى لو حبيت نقعد هناك على طول، مفيش مانع الشغل هناك زي هنا، المهم إني مش هاسيبك تروح مني»

– «على العموم فكري، أنا مش رايح معاكي لأمك، وموضوع المزرعة لسة بفكر فيه، فلو حبيتي تروحى لأمك لوحدك قوليلي، وأنا لو قررت أروح المزرعة هأقولك وبعدين فكري حتعملي إيه»

وبالفعل لم يكن في حسباني أن أتركها للأبد، ولكنني رغم هذا قرعت الباب بشدة وخرجت للعمل.

ولم يكن الخطاب التالي الذي جاء من المزرعة من جمال؛ بل من زوجته تيسير لتخبرني:

"جمال أكيد محتاج لك يا سمير، ولكنه يخجل أن يكتب لك ذلك بنفسه، إنه لا يريد أن يفرض عليك أمرًا لا ترغب فيه، ولكنه بنى أحلامًا كثيرة على وجودك معه لتنهضا بالمزرعة معًا، وبالمناسبة، جمال عاوده ألم الكُلى مرة أخرى، ورغم أنه يحب المزرعة فهو لا يستطيع أن يعمل بها بمفرده، وأبي في نفس الوقت يريد أن يترك البلد قبل حلول الشتاء، أفلا تستطيع الحضور؟ ولتكن محاولة يا سمير. لعلمك الجو هنا سيكون مناسبًا جدًّا لأولادك، ولا تخف، اعتمد علي في كل أعمال المزرعة. وعلى فكرة البيت رغم قِدمه فإنه مجهز بأحدث الأجهزة.. ولتكن محاولة".

كان هذا الخطاب الدافع الذي جعلني أقرر الذهاب، فاستأجرت سيارة لكي نذهب بها إلى هناك.

ولم تكن رحلة المزرعة إلا نوعًا من الألم لمرقت، فكأنها لا حول لها ولا قوة بدون صديقتها ليلى، ورغم إحساسي بالأسف لمعاملتي لها فإنني لم أستطع بأن أنطق كلمة حب لها، فهي لا تبدو لي إلا كحيوان متهدل، أصابتها السمنة واللامبالاة بسبب رعايتها لطفليها، ولكم شعرت بالحسرة؛ فهناك أمهات كثيرات يزددن جمالًا ورشاقة رغم ما ينجبن من أطفال، هل لأنهن كن يحببن أزواجهن، أو أن أزواجهن يحببنهن؟ لست أدري.

أخيرًا وصلنا لطريق ترابي يؤدي إلى المزرعة، كانت تقف في آخره وعلى مشارف المنزل زوجة أخي تسير في ملابسها الأنيقة، وتقدمت نحونا في رشاقتها لتحتضن مرقت والأولاد، بينما اتجهت أنا مباشرةً لأخي جمال الذي كان واقفًا لاستقبالنا، ولكم كانت صدمتي عند رؤيته التي جلبت الدموع لعيني، فلم أر إلا اندفاعي تجاهه لأحتضنه.. لقد تاهت الكلمات مني ومن جمال فلم نعبر إلا بالأحضان الحارة التي جمعت بيننا، مستحضرًا تلك الأيام القديمة التي كنا نتسابق ونتصارع فيها كشباب في مقتبل حياتهم، ولكم كان يتفوق عليّ، والآن يبدو كمن تهزه الريح إذا هبت.. فها ظهره قد أصابه الانحناء، والشحوب غطى وجهه، وغزا الشيب رأسه كأنه تجاوز الستين وهو لم يبلغ الخامسة والثلاثين بعد. وأخيرًا حاولت الكلام:

– «ياه يا جمال فينك، معلش سامحني اتأخرت عليك»

– «لا المهم انت هنا في النهاية. ياللا بس نتعرف على العيال. بقى دي مرقت يا سيدي؟»

أصابني الخجل وأنا أنظر في عين جمال التي تخلل إليها الاندهاش؛ فهل هذه مرقت التي أخبرتكم عنها؟ أين صدق كلماتي.. إنها امرأة مناقضة تمامًا للتي رسمتها لهم في خطاباتي، وبحنوه ورقته المعتادة فتح جمال ذراعيه

ليحتضن مرڤت وأبنائي، بينما تركزت عيني في زوجته تيسير وهي تذهب للسيارة لتحضر الحاجيات الخاصة بنا، إنها في منتهى الرشاقة، نفس الرشاقة التي كانت عليها مرڤت في الأيام الغابرة، إن تيسير اليوم هي مرڤت الماضي.. نفس القد الممشوق ونفس الوجه الطفولي الجميل، نفس الحيوية والنشاط؛ بل وذات الشعر الكستنائي. لا، إن هناك اختلافًا بين وجهيهما، فلم يكن وجه مرڤت يعبر عن الذكاء ولا الشعور المتدفق تجاه الآخرين كما هو في وجه تيسير، فكأنما كنت أرسم في خيالي صورة لحقيقة لم تكن معي والآن تجسدت أمامي ولكنها ليست لي.

– «ياما جمال تكلم عنك.. بس انت أحسن بكتير من وصفه ليك»

لم أستطع النطق أمام كلمات تيسير عني، وشعرت في الحال وكأنها أحست بشيء من الخجل لكلامها عني بهذا الأسلوب، فتحولت لمرڤت لتمطرها بكلمات إطراء شعرت بأنها تبالغ فيها.

ولقد أتيحت لي فرصة الحديث لجمال في ذلك المساء حيث تمشينا معًا خلف المنزل وحيث الغروب يسدل ستارته على المكان والهواء يبعث لذعاته المنعشة، فتجاذبنا أطراف الحديث

– «أنا لا أعتقد أن الإنسان يصيبه التعب في هذا الجو، وأنا شايف إنك هتقوم بالسلامة وتستعيد صحتك ونشاطك مرة ثانية»

– «ربنا يعلم قد إيه بأحاول أتغلب على اللي أنا فيه، ولكن أنا فعلًا لاقي نفسي ضعيف، أضعف من عيل صغير، طاب أنا أعمل أيه، أتعالجت من الأزمة القلبية، دخلت في عملية الكلى، وهو شوية كده وشوية كده»

وجدت نفسي أضع يدي عليه مهدئًا من روعه:

– «اليأس لا يفيد، كل ما في الأمر إنك تريح نفسك وتركز تفكيرك في إنك إزاي تستعيد صحتك وتحافظ عليها، وأنا هأقوم بكل شيء بدالك لغاية ما تخف»

– «أنا معتمد عليك يا سمير، دلوقتي بس حسيت بإني بديت أخف، بمجرد وجودك جنبي خلاني أحس بكده، لأن تيسير كانت شايلة الحمل لوحدها، ودي ست لكن بميت راجل يا سمير»

– «أنا شايف كده»

قلتها باهتمام واضح، ثم أردف:

– «آه لو أقدر أقولك قد إيه أنا باحبها»

– «أكيد طبعًا»

وانتابني شعور مؤلم بين ضلوعي وكأن شيئًا حادًا يطعنني، بينما هو مستمر:

– «عمرها يا سمير ما اشتكت ولا قالت آه، وأنا حاسس إني مش قادر أديها حقها.. لكن باحاول، أعمل إيه؟ المرض»

ثم وضع وجهه بين يدييه وأجهش بالبكاء، فوضعت ذراعي حوله مخففًا من روعه، وان كنت لم أستطع وقف التفكير في هذه السخرية؛ فأخي عنده الحب وليس عنده مقوماته، وأنا عندي المقومات وليس عندي الحب، ولكن ماذا عن امرأة مثل تيسير؟

لم يكن جمال بالرجل الذي يبكي إلا نادرًا، فلذلك سرعان ما توقف عن البكاء، فلقد أفرغ ما كنه صدره من متاعب، ثم عدنا إلى المنزل نتضاحك معًا.

في ذات مرة ذهبت إلى الزريبة مع تيسير حاملًا لها الكشاف الكهربي لأساعدها في تبييت البهائم، فتقدمت نحو الزريبة وهي تدردش بعض الدردشة

ببعض الضحكات المتقطعة، وضعت الكشاف على صندوق موجود في الزريبة وساعدتها في فرش بعض القش اللازم للبهائم، وطوال الوقت لم نتوقف عن الكلام، كما لو أنها لو توقفت لشعرت بالخوف.

– «أنت إنسان عظيم»

– «كلانا له ما يجعله قلقًا»

وندمت على أنني قلت هذا لأنها لم تتكلم بعدها، واكتفينا بالصمت الذي نتحرك من خلاله هنا وهناك نتمم على مخاول العلف والأقفال، حتى جاءت أيدينا على قفل واحد في لحظة واحدة فتلامست، فارتعدنا ورفعنا أيدينا بسرعة كما لو أن هناك ماس كهربي، وإن احتفظت بها في تفكيري.. يا رب، لماذا لم أقابل هذه المرأة من قبل؟ إنني شعرت بأنها قريبة مني، وكانت فعلًا قريبة مني، إنني لم أسمع دقات قلبها بل أنفاسها تتداخل في أنفاسي، متسائلًا كيف هذه المرأة كافحت وتعبت من أجل زوج لا يعطيها حق الزوجية، وما شعرت إلا بدمي يرمي بنفسه على وجهي، بينما توقفت لحظة بعد خروجنا من الزريبة، وكنت قد أغلقت الكشاف مكتفيًا بالإضاءة التي يرميها المنزل على الممر، وفجأة وضَعَت يدها في ذراعي.

– «إحنا محتاجين لك قوى يا سمير»

– «هاكون عند حسن ظنكم»

خرجت مني بصوت متهدج، مسترسلًا:

– «مفيش إنسان في الدنيا ممكن أهتم بيه زي أخويا»

– «انت لازم تكون دراعه اليمين، على الأقل لفترة»

– «أيوه»

متأملا في نفسي قلت: "أن أكون ذراعه ليس إلا".

لم أستطع تلك الليلة أن أنام، فظللت متيقظًا في السرير.

– «أنا مش حاسة كده.. مش معقول آجي أندفن هنا»

كان صوت مرقت متمتمًا بغضب. رددت عليها بحسم:

– «على الأقل أحسن من الدفنة اللي كنا فيها، وعلى الأقل فيه شغل كتير ممكن نعمله»

– «زي إيه.. زي عينيك اللي مش قادر ترفعها من تيسير؟»

وددت لو صفعتها على وجهها، ولكن كظمت غيظي شاخطا فيها:

– «بس اخرسي»

جلسنا في الصباح جميعًا نقسم العمل بيننا، فأنا وتيسير لأعمال المزرعة، ومرقت لأعمال البيت.. أما جمال فللأعمال المكتبية أو التي تحتاج للنزول للبلد، ومرت أيام لتستقر الأمور على هذ النحو، كانت المزرعة في حاجة لثلاثة رجال، لذلك كنا نبذل أقصى ما في وسعنا، ولأن تيسير كانت تعرف كل شيء عن المزرعة فقد علمتني كل ما هو لازم للعمل، وكانت مرقت حريصة أن تخبرنا كل ليلة عن إرهاقها في العمل المنزلي والأطفال، أما جمال فكان أحيانًا يشاركنا بالمجيء للمزرعة لأوقات قصيرة، ثم يعود ليجلس تحت السقيفة أمام البيت، ثم يستسلم للأعمال المكتبية متألمًا بما فيه الكفاية، ولشدة ما كان يحزنني أن أراه في هذه الحالة، مجروحًا في كبريائه، لقد كان العمل شاغلي الأكبر؛ فطيلة حياتي لم أعط مثل هذا العطاء، فقد كان العمل في المزرعة يحقق لي شيئين: الأول وجودي باستمرار بجانب تيسير، شاغلًا يدي بالعمل المستمر، فلم أتوقف عن العمل لحظة واحدة منذ الصباح الباكر حتى غروب الشمس، وكنت أتساءل: هل تيسير ترهق جسدها في الشغل تعويضًا عما ينقصه مثل ما أفعل أنا أم لا؟ أعتقد ذلك.

ولم يبد الأمر أن جمال بخل بشيء عنها؛ فقد كان يعطيها كل ما يمتلك، فساد الحب والاحترام بينهما، وكانت تيسير رقيقة جدًّا معه وتعامله بحنو، الشيء الذي أفتقده في حياتي الزوجية.

لقد كانت عندما تميل لتقبيله أو تضع يدها لتحضنه مليئة بالحب والحنان رغم إنه لم يعطها ما يجب أن يعطيه رجل لامرأة مفعمة بالحيوية مثلها، فإنها لم تشعره قط بهذا النقص.

وإن كنت ألاحظ في بعض الأيام أنه عندما يشعر بتحسن ما يأخذ زوجته مبكرًا لغرفتهما، حتى إنني ألحظ في الصباح علامات الرضا على وجه تيسير وكذلك جمال، وهذه العلامات كانت تختفي في بعض الصباحات ويظهر بدلًا منها عدم الرضا والانزعاج.

في صباح يوم من الأيام كنت أعمل في ماكينة ضخ اللبن فوقعت مني وانكسرت، ولم أجد صندوق قطع الغيار لأقوم بتصليحها، فذهبت أبحث عن تيسير لأسألها فوجدتها في الشونة تعبئ بعض بالات القش، فقلت لها:

– «ليه تاعبة نفسك كدة؟ خليني أساعدك»

فارتجفت لسماع صوتي واستدارت فجأةً مذعورة وقد ألقت بالمذراة بعيدًا وهي تجهش بالبكاء، فكنت في غمضة عين بجوارها واضعًا يدي على كتفها.

– «متخافيش، هدي نفسك»

ولكنها رفعت يدي بعيدًا.

– «لو سمحت سيبني لوحدي، أنا كويسة خلاص»

توقفت الكلمات في حلقي ولم أقل شيئًا، وما كان عليَّ إلا أن أدير ظهري وأنصرف، فأحسست بيدها تمسك بذراعي قائلةً بصوت مخنوق:

– «ليه هو مش عايز يخف؟»

فنظرت في يدها التي طوقت ذراعي متلعثمًا.

– «مش عارف»

– «الدكاترة عملوا كل حاجة، وهو كمان عمل اللي عليه»

ثم استدرَكَتْ:

– «ليه أنا بأقول الكلام ده؟ أنا مش كويسة ولا أستاهل لمسة منه»

قلت مقاطعًا باندفاع:

– «لا لا، انتي مدهشة يا تيسير.. كتر خيرك، انتي عليكي حمل كبير مش أي واحدة تستحمله، انتي ست عظيمة، انتي أحسن إنسانة أنا قابلتها في حياتي»

فنظرت إليَّ من خلال دموعها وقد وضعت يدي الأخرى على يديها التي أحسست بلهيبها بين يدي، ولم نستطع لحظتها أن نتحرك من مكاننا.

– «هو انت خايف برضه؟»

– «آه»

– «طيب إيه العمل؟»

– «إن إحنا نخرج من هنا»

– «عندك حق»

ثم نهضنا وخرجنا من الشونة في صمت قطعته هي:

– «أنا عايزة أبقى مخلصة يا سمير»

– «وأنا كمان»

– «يبقى لازم نشتغل بجد، وخلينا دايمًا في النهار وبعيد عن الشونة»

– «بس يا ترى لغاية إمتى؟ أنا على العموم هامشي بمجرد ما نجني المحصول»

- «وإزاي هنكمل من غيرك يا سمير؟»

- «زي ما كنت بتعملى قبل كده.. وأنا هساعدك من بعيد، وبالمحصول اللي جاي ممكن تقضي الشتا الجاي، وكمان جمال مش هيفضل عيان على طول»

- «ويرضيك تتخلى عنه وتكسر بخاطره؟»

- «إيه اللي أحسن له، قعادي ولا بعادي؟»

فلم تجب بشيء إلا بهرولتها نحو المنزل، بينما ظللت أنا بالخارج حتى حان موعد النوم، فلم أكن متعبًا جسديًا فحسب، بل وممزقًا عاطفيًا، وشعرت بأن السرير يغوص بي من تقلب مرقت بجسمها المترهل الذي يزداد سوءًا كل يوم، فما كان مني إلا أنني كورت نفسي وتظاهرت بالنوم، وأحسست بيدي مرقت تسلل إلى يدي.

- «سمير.. سمير»

- «أنا تعبان وعايز أنام سيبيني» (قلتها بشيء من القرف)

- «يا سمير داحنا بقالنا مدة مابنتكلمش مع بعض، وأنا طول اليوم...»

- «عارف.. طول اليوم بتطبخي، وبتغسلي وبتنضفي البيت والعيال ومحدش بيقدر تعبك.. وأنا طول اليوم باشتغل وعايز أنام»

- «ومش عايز حاجة تاني مني قبل ما تنام؟ يا سمير أنا مش قادرة على كده.. احضني يا سمير، بوسني، اعمل أي حاجة، حسسني إني عايشة.. دي الأيام بتعدي مش حاسة بيها، دانا حاسة إني خايفة لوحدي.. اغلط مرة وحسسني بنفسي»

لقد مرت كلماتها كطعنات في ضميري، وتدافقت في داخلي موجات من الشفقة والعطف، فوجدت نفسي أتقلب لأحضنها بين ذراعي، فهي فعلا

زوجتي، تتعب فعلًا، لازم أعطيها حق الزوجة كأي زوجة، ولكن كيف؟ يا ليتني أشعر بشيء من الحب نحوها، إنني أحاول، وما النتيجة وهي كجوال من البطاطس بين يدي فما استطعت إلا أن أقول:

- «ماشي.. بس المرة دي سيبيني أنام عشان تعبان ومرة تانية»

فما كان منها إلا أنها انخرطت في البكاء وكأنني طعنتها، وهمست في أذني:

- «يمكن كنت هتقدر تعمل حاجة لو كانت هي مكاني»

- «وطي صوتك»

- «أيوه كنت تتمناها، بحركاتها بتاعة المدارس وضحكتها اللي زي الزبدة، بس يكون لعلمك مهياش أكتر من أي واحدة من إياهم، جوزها مش مالي عينها، عايزة أي واحد يملاها، أنا شايفاها وهي بتبصلك، أنا باكرهها، باكرهك باكره المكان ده وكل حاجة فيه»

- «قلت لك وطي صوتك. عيب»

حتى بكائها لم يكن فيه رومانسية؛ فقد كانت تنهق.. رمت نفسها في حضني وبدأت تمطرني بلكماتها المتصلة، فما كان عليَّ إلا أن أتلقى لكماتها في صمت، مشفقًا عليها، فأنا في هذه اللحظة بالذات لا أكرهها أكثر من كراهيتي لنفسي، أنا في جحيم لا يطاق.

ولقد كنت جادًا في حديثي مع تيسير بأنني سأترك المكان بمجرد جني المحصول، وها هو جمال بدأ في التحسن، وأعتقد أنه في الشتاء سيكون هناك مبلغٌ كافٍ للمعيشة، والعمل سيكون أقل فتقدر عليه تيسير بمفردها.

وجاء موعد الرحيل، ولكنني لم أرحل؛ فالمحصول لم يكن كما توقعنا، فالجفاف لم يبقِ لنا شيئًا، فكل شيء في أيدينا أصابه الجفاف، حتى جمال أصبحت حالته أسوأ، وبريق الأمل في عينيه انطفأ بينما اشتعلت كلماته:

- «ليه؟»

قالها بهستيريا.

- «ليه أنا مامتش مع المحصول ليه؟»

قلت محاولًا تهدئته:

- «انت اتجننت؟ ليه اليأس ده يا جمال؟ اهدا»

- «يعنى أنا جبتكم كلكم هنا عشان أتعبكم وبس، عشان واحد زيي ميت بالحيا؟»

- «ماتقلش كده، انت مش ميت يا جمال، انت زي أي حد ممكن يعيا ويخف تاني، ثم اللي حصل مش بإيدك ولا بايد أي حد فينا»

- «لا يا سمير أنا السبب، لو ماكنتش عيان، ماكنتش على الأقل تعبتكم معايا»

- «سيبك بقى من الكلام ده.. ولو انت فقدت الأمل عمرك ما هتتحسن، وقوم بقى نشوف هنعمل إيه، إحنا نتصرف بقرض أو بأي شكل لغاية الموسم الجاي ويبقى ننتبه للمحصول»

ودفعته بحب للوقوف، فوقف وهز رأسه وبدأت الابتسامة تعود إلى وجهه بعد مداعبتي له وهزاري معه، ونظر إليَّ قائلًا:

- «ربنا يبارك فيك يا سمير، أنا ماكنتش عارف أعمل إيه من غيرك، ده الشيء اللي مصبرني على اللي أنا فيه هو وجودك جنبي، إحساسي بإننا جنب بعض دايمًا محسسني بوجود عيلة معايا بتسندني، لولاك كان زماني خسرت كل حاجة»

وبدأنا نستعيد قوتنا، وأخذنا أنا وتيسير في جمع ما تبقى من محصول، وبصوت شبه حزين سألتني:

- «برضه هتسيبنا يا سمير؟»
- «لأ مش ممكن أسيبكم في الحالة دي»

وتمر الأيام صعبة قاسية ونحن على وعدنا ألا نذهب للشونة معًا، حتى لو كان هناك عمل لا يقوم به إلا اثنين، كنت أقف أنا خارج الشونة لأدفع لها ببالات القش لكي تدخلها في الشونة، وفى أحد الأيام بعد أن دفعت لها ببالة القش، سمعتها تشهق شهقة عالية، ففزعت ودخلت لأرى ماذا حدث، فإذا بها تحاول أن تجر آلة كبيرة ولكنها لم تستطع، فجررناها معا إلى داخل الشونة في صمت مرتفع الأنفاس، وما كان مني إلا أنني احتضنتها فجأة دون مقدمات.

- «باحبك، باحبك، باحبك يا تيسير»

فوضعت يدها فوق فمي لتوقف صرخاتي، ثم وضعت فمها فوق فمي لتسكته، وكانت بالات القش هي السرير الذي شهد انغماسنا في الشهوة، وكان هذا اللقاء هو بداية لقاءات كثيرة متعددة في نفس المكان وذات السرير.

وجاء موعد مجيء (نادر)، أول مولود لتيسير.. ابن جمال.. ابني! لم أعد موقنًا من شيء غير أن جمال كان يمر بأسعد أوقات حياته كلما اقترب موعد الولادة، ولكم كان يلح عليها أن تتوقف عن العمل، ولكنها كرهت أن تبقى في المنزل، وكأنها تخاف أن تنظر في عيون ميرڤت طول اليوم.

بعد عامين من الجفاف الذي حطم المحصول، ذهبت تيسير للمستشفى، ولقد اضطررنا للاقتراض مرة أخرى، وفي اليوم التالي لوصول تيسير للمنزل مع المولود الجديد، كانت ميرفت قد غادرت هي والأولاد، ويحمد لها رحيلها على الأقل في عدم وجود جمال؛ حيث إنه ذهب للمستشفى بخصوص إجراءات

الولادة.. لقد ظهرت مرڤت في تلك اللحظة، وقد ارتدت والأولاد ملابس الرحيل:

– «طبعًا مش هاستنى لغاية ما أربي المولود الجديد، ومانيش هفضل طرشة وانتوا بتفكروا في ابن مين ده»

وعلت نبرات صوتها:

– «كفاية بقالي سنتين وأنا خدامة في الأرض النجسة دي، أخلي بالي من العيان وانت تخلي بالك من مراته. على العموم أنا ماشية في أول قطر، معاك فلوس ولا أستنى جمال وأقوله على اللي في نفسي، وإن كان عيان وميتحملش الكلام اللي هيسمعه أنا مش جاية تانى.. ومش هاتطلق يا سمير»

وضعت تيسير الطفل جانبًا وهي تنظر بذهول ومن هول الصدمة، وأنا من جانبي أستعطف مرڤت:

– «علشان خاطر ربنا بلاش تسافري، خليكي معانا.. فكري يا مرڤت»

– «أنا فكرت خلاص. دانا بقالي سنتين وأنا زي الحمارة باشتغل عشانكوا، ومفيش حتى كلمة شكر ولا حتى لبست هدمة نضيفة عشان أبقى إنسانة، وكل ده وانت والهانم بتعاملونى زي الخدامة.. الهانم اللي كل الناس في البلد ممكن تعرف إن الست هانم بنت الأصول مهياش بنت أصول هي (...)»

واستدارت ناحية تيسير:

– «عندك كلام عايزة تقوليه يا بنت... الأصول؟!»

ولكن تيسير في محاولة لعدم المواجهة استدارت بعيدًا، أما مرڤت فلم تتوقف عن الكلام:

– «رقيقة؟! وناعمة! ماهو أنا لا رقيقة ولا ناعمة. أحسن لك روح هات الفلوس بتاعة المواصلات وتعالى»

كان الأمر في منتهى القبح مثل مرقت بالضبط، فلأول مرة لم تكن لتتنوح وتبكي كالعادة ولكنها الآن توبخني وتتجرأ عليَّ، وما كان مني إلا أن أحضرت لها الفلوس.

مر شهران ولم يصلني من مرقت إلا خطابين، الأول تخبرني فيه أن أمها مريضة ولا تستطيع رعاية الأولاد، ولذلك هي لا تعمل، وبالتالي تريد مزيدًا من النقود حتى يستطيع الأولاد أن يأكلوا.. فمزقت الخطاب، أما الخطاب الثاني فأخبرتني بوفاة أمها وأن الخالة شادية (ولا أدرى من شادية هذه) على أي حال فالخالة شادية ترعى الأولاد وهي تعمل في عملها القديم.

أما المتاعب التي اخترتها لنفسي في بقائي مع جمال فكل يوم تزيد على الآخر، مزيد من الفواتير ومن العمل البدني، رغم أن تيسير تعمل كل ما في وسعها معي، غير أن نادر يحتاج لرعاية وكذلك البيت وجمال، فكان الحمل كله على كتفي وحدي.

إلا أن هناك شيئًا من السعادة في هذا الوضع، هناك معنىً ما لما أعمل؛ فيكفي أننى أعمل من أجل من أحبهم، بالإضافة لوجود نادر الذي يملأ المكان بالضحك واللعب، والذي لا أدري أهو ابني أم ابن جمال.. وعلى أي حال فهو ابن تيسير الذي أشعر تجاهه بعاطفة جياشة لم أشعر بها نحو أبنائي أو أبناء ميرقت.

ما من أحد عبر عن دهشته لرحيل ميرفت، فهي لم تحاول أن تخفي يوما كراهيتها للمكان ورغبتها المستمرة في تركه، ولم يكن خافيًا عدم التوافق بيني وبينها، حتى جمال لم يتفوه بكلمة عن هذا وإن كان في الفترة الأخيرة لم يتكلم

كثيرًا، فهو يجلس دائمًا بجوار النافذة متدثرًا ببطانية، متأملًا في الأفق، حتى عندما نتكلم معه لا يبدي سوى ابتسامة حزينة كأنه يعيش مع الموت، الشيء الذي كان يزعجني ويزعج تيسير التي لم ترغب في تركه وحيدًا ولو لدقائق، ولم يكن عندي وقت للتفكير من كثرة العمل الذي على كاهلي، ولو كان هناك تفكير لفكرت في معنى الحياة التي أعيشها، وفكرت في مرڤت وأبنائي في نفسي وفى تيسير، ولكنت فكرت في جمال، في سبب وجودي هنا! لماذا أنا هنا؟ ما الذي يحدث، وما الذي أتمناه؟ ولكن مثل تلك الأسئلة لا تنتظر لتقال، ولكن لها أسلوبها في فرض نفسها.

في آخر الصيف كنا في طريقنا لحصاد أوفر محصول مر على المنطقة بأسرها، فلقد كان المطر غزيرًا في ذلك الصيف، فشمل الاخضرار كل شيء، وتفتحت الثمار، ورعرعت الماشية، وبعنا كل محصولنا، واستطعنا أن نسدد ديوننا ونشترى آلات جديدة، لدرجة أنني استعنت برجال أجراء في جمع المحصول، وشعرت لأول مرة أن محصولي نجني ثماره. في هذه الأثناء وصلني خطاب من مرڤت سطوره قليلة تخبرني أن الأولاد بخير وهم في رعاية خالتهم وأنها مستمتعة بعملها، كان ذلك أول خطاب من مرڤت ليس فيه نواح أو صراخ ينتهي بجملة مختصرة: "إيه يا سمير؟ آخرتها إيه؟ لازم الإنسان يفكر في المستقبل. هو انت عايز الطلاق ولا...؟".

إنها تحدثني عن الطلاق دون أن تذكر هل ترغب في ذلك أم لا.. سؤال مهم في حاجة لإجابة. على الإنسان أن يفكر في المستقبل. ما هو المستقبل بالنسبة لي، وما هي خططي للمستقبل؟ ومن أنا؟ أعاشق، أزوج، أم أجير؟ ولمن أعمل؟ كثير من الأسئلة تدور في خلدي ولا إجابة لأي سؤال.

كان جمال ينظر من الشباك وهو يلقي بسؤاله في هدوء:

- «مرقت؟»
- «آه»
- «انت إيه شعورك ناحيتها دلوقتي يا سمير؟»
- «كان سؤاله في منتهى الحرص، وكانت إجابتي في منتهى اللامبالاة»
- «ماكانش بينا يا جمال أي تفاهم، أهي كويس إنها مشيت، كانت حمل تقيل علينا»

أدار جمال وجهه بعيدًا بحيث لم أستطع أن أراه وهو يتمتم بصوت هامس:

- «مش هي الوحيدة اللي حمل»

فانتفضت واقفًا على قدمي.

- «بتقول إيه؟»
- «لا مفيش»
- «لا.. ماتعاملنيش بالشكل ده. أنا عاوز أعرف قلت إيه؟»
- «بلاش تضغط عليا» (قالها في ألم).
- «لا، انت قلت حاجة عن الحِمْل. لا يا جمال، اوعى تقول كده، مفيش حد بيفكر إنك عبء على حد، ومانتاش عبء على حد يا جمال»

فاستدار بنظرة غاضبة، تمنيت ألا أراها وألا تذهب الآمور لأبعد من ذلك.

- «ومفيش حد برضه عايزنى بعيد؟»
- «لا يا جمال» (قلتها في حرقة وضعف).
- «مفيش حد غيرى أنا أنا عايز أبعد، بس انت ماتقدرش تعوز كده، أحسن لك تنتظر» (قالها بحدة)
- «جرى إيه يا جمال؟»

فانتفض من فوق كرسيه بعينين متوقدتين..

– «"أنا هأقولك حاجة يا سمير يا أخويا، انت بتكدب على نفسك»
– «اهدا يا جمال»
– «لا يا سمير.. فات الأوان، كفاية كدب. عشان أنا عايش كدبة كبيرة، كدبة مخليانا كلنا.. انت وأنا وتيسير، مش قادرين نبص في بعضنا لغاية ما أموت»
كلماته جعلتني لا أستطيع النظر اليه أو الرد عليه وهو مسترسل في كلامه.
– «طبعًا عمرك ما فكرت إني أعرف كل حاجة بينك وبين تيسير.. انت عبيط يا سمير، كان في ذهنك إنه من الصعب إني أعرف؟ تفتكر لما تكون مرڤت عارفة.. أنا ماعرفش؟»
– «ماكانش قصدي، ولا عمر ده كان هدفي» (كان صوتي منكسرًا وحزينًا)
– «عارف»
وغطى وجهه بيديه المعروقتين وهو يتكلم في مرارة:
– «ما حدش بيدور على المتاعب.. ودي مش متاعب دي أحلى حاجة كان ممكن تتعمل، ما أنا بقالي سنين قاعد هنا، اتصاحبنا أنا والموت، والوقت كان كبير للتفكير؛ لدرجة دفنت نفسي من زمان، وجات الطامة الكبيرة لما عرفت اللي بينك وبين تيسير. بس بعد كده اكتشفت إنها مش مصيبة، ده شيء كويس.. كده تيسير تقدر تاخد بالها من المزرعة ومن نادر ومن الحب»
– «كفاية.. كفاية. انت مش هتموت، ده مش عيا موت.. لأ»
ولكنه استمر في ثورته وإلقاء نظراته الملتهبة في وجهي:
– «بس برضه كنت بفكر في نفسي وفى اللي بيحصل، ماكنتش باتحمل حاجة؛ وخصوصًا كدبك ولاقيتني باكرهك ونفسي أقتلك وآخد صحتك لي»

ثم ارتمى عليَّ ليهيل عليَّ اللكمات، ولكنني حضنته، وإن كانت لكماته وخزًا في ضميري جعلتني أصرخ بألم ومرارة وحب:

- «كفاية يا جمال!»

وفى نفس اللحظة رأينا تيسير واقفة أمام الباب وفى يديها نادر وهي تنظر إلينا في رعب، ولست أدري من أين جاءته القوة التي جعلته يندفع للداخل وهو لا يتوقف عن الصراخ الهستيري.

- «ماتخليهوش يجري، هيغيب.. الحقه لاحسن يجراله حاجة»

وقبل أن تكمل تيسير كلامها وجدتني أتوجه نحوها صارخًا في وجهها:

- «مش ده اللي انت عايزاه، مش أحسن ليكي إنه يموت؟»

- «لا.. لا»

ووجدت نفسي مندفعًا خلف جمال حتى وجدته ملقىً على ماسورة مجارٍ كبيرة وهو فاقد الوعي، فحملته على ذراعيه وعدت به للمنزل وبسرعة وضعته في العربة نصف النقل، وتركنا نادر عند الجيران، وأخذنا جمال إلى المستشفى.

جلسنا في غرفة الانتظار يلفنا الصمت من هول ما حدث، حتى ساعة متأخرة من الليل، إلى أن جاء الدكتور حوالي الساعة الثانية صباحًا.

- «حالته إيه يا دكتور؟ طمنا»

قال الدكتور وهو يهز كتفيه:

- «أنا مضيت مع جمال فترة طويلة، وتقريبًا عارف حالته جيدًا، وانت عارف لو إنه بعد عن الانفعالات هيبقى كويس، وماقدرش أقولك إنه هيبقى طبيعي بس حالته هتستقر نسبيًا، ومن الأفضل إنه يبقى هنا تحت الرعاية الطبية»

- «شكرًا يا دكتور»

وخرجنا أنا وتيسير وركبنا السيارة، وبعد صمت طويل اضطررت أن اقطعه:

- «وبعدين يا تيسير، إيه؟»

فقاطعتني قائلةً:

- «مش وقته يا سمير»

- «لا، هو ده وقته. أنا مش هستنى لغاية ما أخويا يموت قدامي بسببنا، لازم تختاري أنا ولا هو»

- «بلاش تطلب مني حاجة دلوقتي، ماتحطنيش في وضع اختيار أرجوك»

- «ليه لأ؟ أنا طول الوقت قاعد هناك في المستشفى بفكر وأسأل نفسي، أنا باشتغل لمين بالظبط، لو كنا فعلًا بنحب بعض ليه مانقلهوش؟»

- «ما أقدرش أعمل كده»

(وأجهشت بالبكاء)

- «أعتبر دي الإجابة، انتي لسة بتحبيه؟»

- «أيوه» (وهي تبكي)

- «وأنا جيت في وقت مناسب مش أكتر؟»

- «بلاش تكرهني، أنا برضه إنسانة.. وكمان أنا بعتز بيك»

- «أنا مش باكرهك بس برضه إنسان مش مجرد واحد بيشبع رغبة ولا إيد بتأجريها. أنا لازم أعرف نفسي كويس وأعرف أنا مين، أنا من بكرة مش قاعد هنا»

- «وإزاي ممكن نعيش من غيرك يا سمير؟»

- «بكرة تتعودي وإن كان عليا ممكن تأجري حد يساعدك في المزرعة، أو ترجعي شغلك في المستشفى وتبيعوا المزرعة وتعيشوا في المدينة، مش يمكن فكرة المزرعة من البداية كانت غلط، ويمكن جمال في جو المدينة يتحسن؟

بس المهم إنك تقولي له إنك بتحبيه وتعرفيه إني كنت لحظة طيش في حياتك أو أي حاجة تخطر على بالك تخليه يعيش»

في الوقت الذي وصلنا فيه للمنطقة حتى نأخذ نادر ونصل للبيت، كانت قد ظهرت على وجه تيسير علامات الارتياح التي لم أرها منذ مدة طويلة.

وفي الصباح الباكر كنت قد تركت المكان، في الوقت الذي كانت تيسير ونادر نائمين، وركبت سيارةً كانت مارة في الطريق.

مرت سنةٌ كاملة وأنا بعيد في مكان بعيد عن الكل، أعمل كميكانيكي، وكنت أكسب مبلغًا كبيرًا أرسل منه لمرقت والأولاد، وطوال هذه السنة لم أتعرف على أية امرأة على الإطلاق. لقد شعرت بالاشمئزاز ناحيتهن.

بعد مدة راسلتني تيسير وأخبرتني أنهم باعوا المزرعة وراحوا سكنوا في المدينة وأن تيسير اشتغلت أخصائية اجتماعية، وجمال بدأ يشتغل في المصوغات الفضية والنحاسية التي يصنعها في البيت، وكانوا سعداء في حياتهم.

أما أنا فبرغم الشقة الجميلة والسيارة الفارهة والعمل المربح، إلا أنني لا أشعر بشيء؛ فالحب لا يجد مكانًا في قلبي.

حاولت أن أجد تفسيرًا لحياتي ولكن للأسف لم أجد، غير أن فكرة أن لي زوجة وأبناء بدأت تشغل بالي وتنمو داخلي، لدرجة أنني في يوم من الأيام وجدت نفسي متجهًا بسيارتي إلى المدينة التي تعمل فيها زوجتي، والتي عرفْتُ عنوان عملها من الخطابات، وما إن رأتني مرقت حتى تغيرت ألوان وجهها، ولكن أفاقت بعد لحظات.. أخذتها لطاولة منعزلة نسبيًا في آخر المطعم وبدأت حديثي:

– «إزاي حال الأولاد؟»

– «كويسين، وأهي خالتي (سنية) مخلية بالها منهم، وهما مبسوطين معاها...»

وكنت أثناء حديثها أتفحصها، فإذا بها قد تغيرت كثيرًا؛ فقد تناسق جسدها وأصبح قوامها ممشوقًا ووجهها أكثر نضارة.

– «انتي احلويتي يا مرقت»

– «شكرًا.. لازم الحياة تمشي، وأنا في شغلي دايمًا والزباين حواليا، يعنى لازم أعيش»

– «إحنا كنا عيال وحشين بصحيح» (وكانت عيوننا متقابلة)

**شرقاوي حافظ**

# الفهرس

## سيرة ذاتية

**شرقاوي حافظ**

عضو في ( اتحاد الكتاب / دار الأدباء/ أتيليه القاهرة/ نادى أدب مصر الجديدة )

المؤهل : هندسة / آداب ( لغة عربية ) / ترجمة ( آداب – ألسن – جامعة أمريكية )

**بعض الأعمال الأدبية والعلمية والمترجمة**

**الشعر**

( راقصات في معبدي / ارتعاش البرونز/ أحلام البنفسج (الهيئة العامة للكتاب) / وعربد الماء / عندها اشتعل الجليد / هكذا فاض الظمأ(الهيئة العامة للكتاب) / ثم (هيئة قصور الثقافة) / ولكن (الهيئة العامة للكتاب) / قلب مؤقت / اللاتناهى/ ثرثرة فوق ضفاف الصمت (هيئة قصور الثقافة) / هي الدهشة.. (اتحاد الكتاب وبورصة الكتب)بالإضافة إلى "قطوف" ديوان مشترك من هيئة قصور الثقافة. و"مدد يافرات" ديوان مشترك من دار جماعة فجر . وقصائد في دوريات وصحف مختلفة غير منشورة في دواوين)

**الأغاني**

تأليف وتلحين أغنيات مهرجانات متعددة منها تأليف أغاني مسرحية عطاطيطو تلحين أحمد النبراوي للمخرج محمود أبو جليلة ومسرحية الأسرة

(مهرجان محافظة أسوان) ومسرحية ،الدنيا غابة (مهرجان شركات تكرير السكر) وغيرها من مسرحيات مراكز شباب بمحافظة أسوان ومحافظة القاهرة وفيلم دموع بريئة تلحين وائل ريحان اخراج كاظم حميدة وأغاني أخرى متنوعة

**الموسيقى**

تلحين كثير من الأوبريتات والاسكيتشات والأغاني في مهرجانات متعددة ومدارس مختلفة

**النثر**

( همس الرحى (رواية)– امبو قاهر التماسيح (قصة تاريخ مصر القديمة)– مجموعة (قصص قصيرة) من الحياة

**المسرح**

( عودة المعرى ( شعرية ) – مدار الشرقاويزم ( خيال علمي)

**النقد**

دراسات نقدية متعددة عن أعمال أدبية لكتاب متنوعين.. نشرت في الدوريات الأدبية.. والإعلام المسموع والمرئي.

**الإعلام**

(حلقات تليفزيونية متعددة عن الترجمة)_ (حلقات إذاعية متعددة عن نقد بعض الإصدارات) _(دراسات نقدية مختلفة في المحافل الثقافية المختلفة)

**الترجمة**

**بعض الأعمال المترجمة إلى العربية**

عندما تسقط هالة ( قصص قصيرة ) – فن الرسم ( كتاب أكاديمي.. راى كامبل سميث.. جامعة عين شمس) . امرأة من القاهرة (رواية . نويل باربر)–

مختارات من الشعر الأمريكي.. خاص-هل للشعر أهمية (دانا جويا.. مجلة الشعر)- قصيدة النثر( مايكل بيندكت.. الثقافة هيئة قصور الثقافة ) - بلبل ليتوانيا ( أشعار الشاعرة اللتوانية سالوميا نيريس.. مترجم شعرا.. سلسلة الألف كتاب.. الهيئة المصرية العامة للكتاب ) - الجوع (كنوت هامسون.. سلسة آفاق عالمية.. الهيئة العامة لقصور الثقافة ) . الشيء الذى حول عنقك (شيماماندا نجوزى.. سلسلة الجوائز.. الهيئة المصرية العامة للكتاب) . ميدلمارش.. جزآن ( جورج اليوت.. سلسلة آفاق عالمية.. هيئة قصور الثقافة ) - القداس ( نيفل شوت.. روايات دار الهلال ) - قراءة ثانية لأسطورة ديونيسوس.. الجامعة الأمريكية). احذر من الصديق الخسيس ( حكايات أطفال.. سلسلة أدب الطفل حول العالم.. الهيئة المصرية العامة للكتاب) . قصص مايكل ويست ( للأطفال.. قطر الندى.. هيئة قصور الثقافة ) . قصائد بوب ديلان . قصائد دانا جويا . قصائد مايكل بينديكت . قصائد ديلان توماس . القيمة (قصة لويس ويسى.. دار الهلال)- قصائد ماو تسي يونج- حكاية سيليا وكيتي (للأطفال.. قطر الندى)- يوغوسلافيا أرض أجدادي (رواية لجوران فوينو فيتشن..)- امرأة في حقيبة (رافيل مونتس..) . اعترافات مؤجلة (ماجيلا بودوين) . عجلة الحظ (هـ ج ويلز) . على الشاطئ (نيفيل شوت) . الرواية التاريخية للكاتبات الأفروأمريكيات (المركز القومي للترجمة) . أفضل القصص الفكاهية الأمريكية (المركز القومي للترجمة) . ما لا نجرؤ أن نقوله (ايزابيل موريس- المركز القومي للترجمة) رسائل جامعية وعلمية متعددة . ما وراء الحدود (الجامعة الأمريكية)- ابنة حفار القبور (اوتس كارول الهيئة العامة للكتاب) . آدم بيد (جورج إليوت الهيئة العامة للكتاب) . ضد أمازون (ستيفن هينيان) . النانو (كتاب علمي) . قوة الهرم (كتاب علمي).

القلب الدوار (دونالد ريان- كيف تستهجي نينجا (شوما نوكولو )- قوة امرأة (رواية للويزا ماي الكوت) – قصيدة النثر أنشودة الليل (لمؤلفين مختلفين) – (مراجعات علمية بمجلات علمية متنوعة . رسائل علمية . اتفاقية بكين . وغيره من أعمال مترجمة قيد النشر بدور النشر المختلفة.

**بعض الأعمال مترجمة للإنجليزية**

( ونحن نغنى أيضا ( قصائد عامية مصرية.. هيئة قصور الثقافة) – زئير الصمت ( قصائد عامية مصرية.. هيئة قصور الثقافة تم نشرها في أوروبا) – قصائدي ( قصائد فصحي ) – قصائد عربية ( لبعض شعراء الفصحى ) – الحب في عيون الشعراء (كتاب نقدى) – باب الدنيا (رواية)- عسل النون (مجموعة قصصية تم نشرها في الهند)- متروبول (رواية تم نشرها في أمازون)- سعيدة (رواية) – ساحل الغواية (رواية)- جراح النفوس (رواية)- على باب الله (رواية) – قمر العميان (مسرحية) – قصص قصيرة . المثالي (كتاب في الرياضيات) . كتيب الاتحاد العالمي للشعراء.. وغيره من أعمال مترجمة قيد النشر.

****